مِن صحائف الفصاحة والبلاغة

بقلم الدكتور
الوصيف هلال الوصيف

Scanned with OKEN Scanner
المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned with OKEN Scanner

الفصاحة والبلاغة كلمتان تعتصران قرائح ذوى البيان العربى ، وتملآن عقولهم بكثير من الأفكار التى تتزاحم وتتدافع حول ما تدلان عليه ، وما تشيران إليه ، وما إليه تعودان وترجعان .

إنهما معا تترددان على الألسنة فى خفة ، وتنطلقان عليها فى يسر ، وترتبطان فى الأذهان بالإبانة فى وفرة ، وعذوبة ، وغزارة ، وإفاضة وظهور ، وتدفق ، وعمق . وبالأسلوب المثير الآخذ الذى اجتمعت فى نظمه كل مجالى الحسن الفاتن ، وتشابكت فى نسجه أنضر زهرات الجمال السانى وتلاقت فى صورة أندى مظاهر التصوير الآسر . من خلال الجمل النفاذة ، والصور الآخاذة ، والمشاعر الفوارة ، والإشارات اللماحة ، والمواقف المؤثرة ، والظلال البارعة ، واللغة الغزيرة ، والمعانى الصحيحة المعجبة مما يملأ النفس بالإعجاب ، والقلب بالدهش والجمال .

الفصاحة والبلاغة بما تفجران من الينابيع الثرة بالنماء ، وبالإحساس بثراء الكلمة ، وخصوبتها وعطائها ، ونفاذها ، وذيوعها وسيروتها على هذا النحو ترى ماذا تكونان ؟

أيختلف وصفاهما لاختلاف الموصوف فى كل منهما ؟

إن التوقف أمام الدلالة اللغوية لكل منهما لا يحول بيننا وبين هذا الفهم الذى لعله يفرضه فلا يتخطاه إلى غيره ومن ثم يختلف المدلول لاختلاف اللفظ .

أم أنهما وصفان لموصوف واحد حتى مع اختلاف الدلالة اللغوية لكل منهما ؟ ذلك أنهما تلتقيان معا عند الغاية والهدف ، والثمرة والنتيجة عند إظهار المعنى ، وتجليته ، وكشفه ، وتوضيحه والإبانة عنه فى إحكام ، وإتقان ، وتوافر

Scanned with OKEN Scanner

وتكاثر، وخفة، وسهولة، ويسر. ومن ثم تكونان عند أصحاب القول شيئا واحدا.

إننا حين نذهب إلى بعض المصادر التي نزعت منزعاً بيانيا خالصا نستنطق أصحابها، ونستنبيء أخبارهم. نسمع منهم، ونصغي إليهم، ونروى عنهم. فإننا نلتقي أول ما نلتقي بأبي هلال ولسنا نبدأ به متحيزين ولكن لما كان كتابه الذي نصحبه في رحلة قد أسماه بالصناعتين، مما يشي اسمه بأن صاحبه قد جعل منه معلما على طريق صناعة الشعر، وصناعة النثر يهدى، ويوجه، ويعلم، ويأخذ بيد صانع الكلام إلى خلق أنساق تعبيرية أملا، وأمثل، وأقوم، وأرقى وأحسن، وأجود. لا يجعلنا في التقديم له مجاملين، فإذا لاحظنا سبقه الزمني على من اخترنا صحبتهم فإن ذلك لا يجعل من بدئنا به تحاملا على غيره، ولا إنكارا، ولا إجحافا. وحين نعطى آذاننا للرجل وهو يتدفق بحديثه عن البلاغة فإننا نسجل رؤيته لها. إذ يراها من بلغت الغاية إذا وصلت إليها، وانتهيت عندها، وبلغتها - بتضعيف اللام - غيرك «ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته»(١).

وهكذا تصبح البلاغة بلاغة حين تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه. إذ أن المعنى المتمكن في نفس المنشيء المستقر في وجدانه الناشب في أعماقه يجب أن تعبأ له كل الطاقات والإمكانات حتى يصل إلى قلب المتلقى، ويتمكن منه في قوة وثبات.

«فالبلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فيه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن»(٢).

وعند الصورة المقبولة والمعرض الحسن يتوقف أبو هلال ليجعل من

---

(١) الصناعتين ص ١٢ طبعة عيسى الحلبي تحقيق البجاوري وزميله.

(٢) السابق ص ١٦.

Scanned with OKEN Scanner

ذلك شرطا لا تنهض البلاغة بغيره ، ولا تقوم إلا من خلاله .

إن دقائق المعانى ، ونوادرها لا تصنع بلاغة مالم تتوفر لها روعة الصنعة ، وبراعة البيان إنه لمن غير السائغ فى العقل أو فى الذوق أن تكون النظرة إلى البلاغة نظرة قائمة على اعتبار أنها توصيل المعنى إلى المتلقى وإنهاؤه إلى قلبه على طريقة ، وبأى أسلوب ولكنها هذا التبليغ فى صورة تبهر القلب ، وتصقل الحس ، وتأسر النفس ، وتخلب العقل . ولن تحلق فى هـــذا الأفق إلا إذا انبثقت من صيغ تكون قد أوفت على الغاية من حلاوة اللفظ ، ومتانة النسج ، وجودة السبك ، وخلابة الهيئة ، ونصاعة الإشراق .

على أن صاحب الصناعتين وهو يحقق هذا المعنى لم يكتف بالكلام النظرى يلقيه ويطرحه ، وإنما تجاوز النظرية إلى ميدان التطبيق فأمد بالمثال الشارح ، وبالنموذج الكاشف ليوثق رؤيته ، ويقوى نظريته من خلال مقارنة كلام بكلام وأسلوب بأسلوب ، ذلك أن النسج المهلهل ، والتعبير الردىء لن يكونا صورة لمعرض الكلام مهما كان مفهوم المعنى ، مكشوف المغزى انظر إليه وهو يضع أمام الأعين والأبصار المثال لما لا يمكن أن يكون الكلام معه بليغا لما شابه من عيب أفقده إياها فيقول : « ألا ترى إلى معنى الكاتب الذى كتب إلى بعض معامليه قد تأخر الأمر فيما وعدت حملة ضحوة النهار ، والقوم غير مقيمين ، وليس لهم صبرى ، وهم فى الخروج آنفا ، فإن رأيت إزاحة العلة مع الجهبذ فعلت إن شاء الله » ثم يعلق بقوله : « فمعناه مفهوم ، ومغزاه معلوم ، وليس كلامه ببليغ فهذا يدل على أن من شرط البلاغة أن يكون المعنى مفهوما واللفظ مقبولا »(١) .

والرجل وهو بصدد تأكيد هذا المعنى الذى يحس به مؤكدا فى نفسه يستعير طريقة الجاحظ(٢) حين يلجأ إلى الحجة الملجمة يدفع بها الشبه، ويقوى

(١) الصناعتين ص ١٦ .

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٩٠ ، ٩١ دار الكتب العلمية بيروت .

Scanned with OKEN Scanner

من خلالها دعواه . فيجعل من طريقة أهل الكلام فى إيراد المقدمات للوصول إلى نتائج يقينية سبيلا يسوقها من خلالها ، إذ أن البلاغة ، واللكنة ، والخطأ ، والصواب ، والواضح ، والمستبهم ، والسهل ، والمنعقد ، والقريب ، والغريب ، والمفهوم والمستغلق لا يمكن أن يكون كل ذلك فى مستوى واحد ، ودرجة واحدة وهو بهذا يزيد من وثاقة دعواه حين يرد بذلك على من يرى غير ما رى استمع إليه وهو يقول : « ومن قال إن البلاغة هى إفهام المعنى فقط فقد جعل الفصاحة ، واللكنة والخطأ ، والصواب والإغلاق والإبانة سواء :

وأيضا فلو كان الواضح ، والسهل ، والقريب السلس الحلو بليغا وما خالفه من الكلام المستبهم المستغلق ، والمتكلف المتعقد أيضا بليغا لكان كل ذلك محمودا وممدوحا مقبولا . لأن البلاغة اسم يمدح به الكلام .

فلما رأينا أحدهما مستحسناً ، والآخر مستهجناً علمنا أن الذى يستحسن هو البليغ ، والذى يستهجن ليس ببليغ »(١) .

ومن ثم نراه يدافع عن « العتابى » الأديب ويتأول لرأيه فى البليغ « من أنه كل من أفهمك حاجته فهو بليغ » بقوله : « وإنما عنى أن من أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة ، والعبارة النيرة ، فهو بليغ »(٢) .

وفى سبيل الاحتجاج لرأيه من أنها إيضاح المعنى ، وتحسين اللفظ تراه ينقل عن بعض الحكماء قوله : « البلاغة تصحيح الأقسام واختيار الكلام »(٣)

ولهذا كانت البلاغة عند أبى هلال راجعة إلى اللفظ والمعنى ثم يبين أنها من صفة الكلام لا من صفة المتكلم ويحتشد الرجل لتقرير ذلك احتشادا قويا ، ويتخذ من مأثور القول ، ومما جرى به اللسان العربى ما يؤكد به رؤيته

---

(١) الصناعتين ص ١٦   (٢) السابق ص ١٧ .

(٣) الصناعتين ص ١٨ وهو منقول عن الجاحظ انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٩٠

فكما يقال : أبرحت إذا أتيت بالبرحاء وهو الأمر الجسيم يقال أبلغت فى الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه . فالبلاغة من نصيب الكلام لا تتخطاه إلى غيره ومن ثم : « فلا يجوز أن يسمى الله عز وجل بأنه بليغ ، إذ لا يجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام ، وتسميتنا المتكلم بأنه بليغ توسع ، وحقيقته أن كلامه بليغ كما تقول فلان رجل محكم وتعنى أن أفعاله محكمة . . . إلا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنه بليغ كالحقيقة »(١) .

وأضع بين يديك نموذجا تطبيقيا من بين ما ارتضاه الرجل من الكلام البليغ الذى توفر له حسن البيان ، وجمال التعبير وسوف يدلك بنفسه على معنى البلاغة فيما أفهم ويهديك فى غير عسر إلى جوهرها وأنها إنما تتفجر ينابيعها من روعة الأسلوب ، وصفاء العبارة ، والتفنن فى المعانى بما يروع الحس ، ويتملك منازع النفس ، ويتدسس فى لفائف وأطواء القلب فيشعل فى الصدور ألوان المشاعر ، ويبعث فيها شتى العواطف . والآن إلى مانصبه قائما للاحتجاج به للبلاغة ، وما رأى أن مثله منها حبة القلب ، وإنسان العين . إذ قال بعد أن أتى على قول الفقيه محمد بن الحنفية رضى الله عنه فى البلاغة من أنها قول تضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة « ومثل ذلك من النثر قول بعضهم لأخ له ابتدأتنى بلطف من غير خبرة ثم أعقبتنى جفاءا من غير هفوة ، فأطمعنى أولك فى إخائك ، وأيأسنى آخرك عن وفائك ، فسبحان من لوشاء كشف إيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشك فى حالك فأقمنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف »(٢) .

ورأى أن هذا الكلام يضائل من قدرة التعليق عليه والتحليل له بغية الوصول إلى كوامن الحسن التى جعلته يتنفس بالبلاغة العالية ويطلق أجواءا من الطرب والشدو . فلندعه فى إشرافه ، وتألقه وحسبنا منه أن نتملاه

(١) الصناعتين ص ١٢ ، ١٣ (٢) الصناعتين ص ١٨ .

ببصائرنا ، وأن نذوقه بقلوبنا لنقطع فى حسم ، وفى غير تردد : بأن البلاغة هى القدرة البارعة على الإتيان بالمدهش من القول فى انصباب ، وطواعية ، والغوص فى الأعماق البعيدة للوصول إلى الكرائم من خوافى المعانى وتجليتها بما يروع ، ويبهر . فضلا عن النفاذ إلى مافى أغوار ومطاوى التراكيب ، وإدراك الخفى من الحسن والقبيح فيها والحكم عليها فى فطنة ، ودراية ، وإحساس ، وذوق .

وأتوقف عند هذا الحد من حديث الرجل عن هذا المصطلح البلاغى وإن كان مايزال عنده بقية من كلام أمسك عن الخوض فيها لأنها مرددة وقد أخذها عن الجاحظ الذى أشار إلى مجموعها فى بيانه وتبيينه منقولة عن الحكماء والبلغاء(١) .

فإذا انصرفنا عن البلاغة وأبحرنا إلى الفصاحة وولينا وجوهنا شطر شاطئها المخضر الغرد العيد فماذا نرى من أمرها ؟

هل ترجع إلى قولهم : أفصح فلان عما فى نفسه إذا أظهره فتكون بمعنى الإظهار ؟

إن قول العرب أفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر ، وفصح أيضا . وأفصح الأعجمى إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين ؛ وفصح اللحان إذا عبر عما فى نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ يعطى هذا المعنى ويوثقه وعلى هذا الفهم تكون الفصاحة والبلاغة وصفين لموصوف واحد معهما كان بينهما من اختلاف فى الدلالة اللغوية ، إذ أنهما ترجمان إلى معنى واحد وهو الإبانة عن المعنى ، والإظهار له .

لكن يقفز إلى الذاكرة سؤال يلح فى طلب الجواب .

هل التقى أصحاب الفن القولى فى هذا على قول متحد ، ورأى جميع ؟

---

(١) انظر الصناعتين الفصل الثالث من الباب الأول ص ٢٠ .

Scanned with OKEN Scanner

الواقع كما يذكر أبو هلال أن الكلمة لم تكن واحدة وإنما اختلفت بها السبل. إذ أن هناك من العلماء من يرى أن الفصاحة: تمام آلة البيان فهى إذن تتعلق باللفظ بسلامته، بصحته، بخلوصه من شوبه، من غيمه، من كدرته، من لكنته. بظهور حروفه العربية، ونطقه بها نطقا سليما واضحا ذلك أن غاية المطلوب من الآلة هو صحتها، وسلامتها لتؤدى وظيفتها، ولتقوم بالمهمة المنوطة بها فى سلامة ورفق، وصحة، ومن ثم لا ترتبط بغير اللفظ، ولا تتعلق إلا به، فإذا قلت أفصح الرجل أفاد ذلك أنه صار إلى حال يقيم فيها الحروف، ويوفيها حقها.

والبلاغة ترجع إلى المعنى، وتتشبث به إذ أنها إنهاؤه إلى قرارة القلب، وتوصيله إليها. فكأنها مقصورة عليه لا تتعداه إلى غيره، ولا تتجاوزه إلى سواه. وعلى هذا تكون الفصاحة من خصائص اللفظ، والبلاغة من خصائص المعنى ومن ثم يكون الموصوف بهما مختلفا فهما إذن مختلفان.

غير أننا نتوقف لنتساءل ألا يمكن أن تلتقى الفصاحة مع البلاغة فى الكلام الواحد فيكون حينئذ بليغا فصيحا ؟

والجواب: نعم.

ذلك أن الكلام إذا سلمت آلته، وصحت أداته، وبانت حروفه، وظهرت مقاطعه، ووضح معناه وبلغ المتكلم به قلب المتلقى، ووصله إليه. فإنه عندئذ يكون فصيحا بليغا.

ونص عبارة أبي هلال: «وقد يجوز أن يسمى الكلام الواحد فصيحا بليغا إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك، غير مستكره فج، ولا متكلف وخم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء لما فيه من إيضاح المعنى، وتقويم الحروف(١)».

(١) الصناعتين ص ٠ ن ١٢ : ١٤.

Scanned with OKEN Scanner

على أن هناك من يرى عدم تحقق الفصاحة فى الكلام إلا إذا جمع مع النعوت السابقة الفخامة ، وشدة الجزالة فإذا التقت كل نعوت الجودة فيه ولم تكن فيه فخامة ، ولا فضل جزالة سمى بليغا ، ولم يسم فصيحا(١) .

وهذا الكلام يفرض علينا أن نتوقف أمامه وألا نتركه يمضى دون مناقشة، إذ أننا لو ارتضيناه وسلمنا بما فيه لكان فى ذلك إهـــدار للفصاحة فى فنون من القول ، بما يعنى أن هناك من أغراض الكلام ما تتوقف على البلاغة ، وتقصر عليها فلا تتجاوزها إلى الفصاحة فى حين أن هناك أغراضا أخرى تجمع بينهما ، لأن الفخامة ، والجزالة والرقة ، والسهولة ، والليونة ، والصعوبة كلها تنبعث من وحى الموقف ، وتنبثق من الدواعى والأغراض ، وتتبع الأحوال والمقامات ، وترتبط بذلك ارتباطا مباشرا وأصيلا .

فصانع الكلام إنما يرسل إلى المتلقى ما استقبله وهو فى ذلك يعكس ما أثاره الموقف المعين فى نفسه ، وما أحس به هو فى وجدانه مما امتلأ به قلبه فانطلق بالتعبير عنه لسانه ، وسال به قلمه فى فخامة وجزالة ، أو فى رقة وسهولة ، إذ ليس موقف المفتخر الممتلىء الغاضب كموقف الصب المتغزل المتهالك . الأول يجزل ، ويقوى ، ويشتد . والثانى يرق ، ويلين ، ويسهل .

الأول حديثه : قعقعة أسلحة ، وهدير مدافع ، وقذائف صواريخ .

والثانى حديثه : همس زهور ، ورفيق طيف ، ورقة نسيم . فهل معنى هذا أن ننحى الفصاحة عنه ، ونحكم بالبلاغة والفصاحة للأول ؛ لأن الثانى رق ولان ، والأول صلب واشتد ؟ إن هذا مالا يقبل به ذوق ، ويرتضيه عقل ، ولا يقره منطق .

إننا نقرأ ماذكره صاحب الصناعتين مما أنشده أبو أحمد عن أبى بكر الصولى لإبراهيم بن عباس :

---

(١) السابق ص ١٤ ، ١٥ .

تمر الصبا بساكنة الغضا ويصدع قلبي أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما هوى كل نفس حيث حل حبيبها

وتعليقه على ذلك بقوله : فالبيت الأول فصيح بليغ ، والبيت الثانى بليغ وليس بفصيح(١) .

ونتوقف أمام هذا الكلام لنرى كيف نظر الرجل إلى كلمة واحدة فى البيت الأول (يصدع) وعزلها عن السياق العام الذى ورد البيت فيه وقصر رؤيته عليها مقطوعة عن الغرض الذى تحلق فى مجاله ثم قضى للبيت كله بالفصاحة والبلاغة بسببها وكأن هذه الكلمة قد أشاعت فى الكلام الجزالة ، وبعثت فيه الفخامة لما تتسم به من الصلابة ، والشدة ، والقوة ، ويتناسى الموقف الذى ورد فيه ، والغرض الذى سيق من أجله وأن كلمة أو أكثر لا يمكن أن تميل به ، وتنقله من موضوع إلى موضوع ، ولا أن تتجاوز الغرض الأصيل الذى جاء تعبيرا عنه ، وإحساساً به ، وتصويرا له . فنحن أمام شاعر صب يئن ويتوجع . وقد ذابت قرارة فؤاده ، وانصهرت أطواء قلبه بعد أن برح به الهوى ، وأسقمه البعد وأمتناه ، فانطلق يشكو وجده وجواه ، ويبث بثه وأساه فى شدو شاج ، وحرقة كاوية ، وترديد حزين ، وقد أضرمت لواعجه ، وأثارت أشواقه وآلامه ريح الصبا التى تنفح بعبير الحبيب ، فتشعل النار فى صدره المطلوم وترمض أحشاءه المحترقة ، ومع أن عهدها بالأحبة قريب إلا أنها لا تطفئ نار الظمأ ، ولا تبرد جمر الفؤاد إذ أن بهجة النفس ، ومنية الخاطر ، ودفء القلب ، وأنس الروح إنما تكون حيث تكون أنفاس الحبيب .

وما أرى أن الغرض يمكن أن يتبدل عن الشكاة المرة ، والأنين المرجع والشوق اللهيف إلى ما سواه مما يستدعى الجزالة ، ويستوجب الفخامة لمجرد أن كلمة جاءت تمثل القوة ، وتحكى التصدع ، وتصور الانهيار .

(١) الصناعتين ص ١٥ .

Scanned with OKEN Scanner

وهى بقليل من التروى ، ونزر من النظر إنما تحكى قوة الشوق وعنف الحب ، وشدة الحرقة ، وقسوة النأى ، وضراوة العذاب ذلك ما أفهمه وهو فهم لا يتجاوز وحى الموقف ، وإيحاء الصياغة ، وغرض الشعر لا فى القليل ولا فى كثير .

وعند هذا الحد تنتهى مسيرتنا مع أبى هلال فليستأذنه فى الانصراف ولنمض فى رحلتنا الرائدة فإن هناك فى مكان ما على الطريق رجلا يجىء الآن وقته ودوره ليأخذ مكانه الشاعر الذى ينتظره فلننطلق إليه فى خفة فحظنا منه أن نقطع معه بعض مراحل الحديث إنه الأمير ابن سنان الخفاجى صاحب كتاب سر الفصاحة والمؤلف الجهير يضعه صاحبه بعد أن فتش عن الفصاحة فهدى إلى سرها الذى أذاعه ، ونشره وإذا كنا نحاول فى حديثنا هذا أن نرتشف من النبع الصافى للفصاحة قطرات تبل الصدى وأن نقطف من الروض الزاهر للبلاغة زهرات منثورة فإن الكتاب الذائع يأخذ بيدنا ليضعها على السر ومن ثم وجب علينا استنباؤه ، واستنطاقه حتى يفضى إلينا بنبئه ، ويقص علينا خبره . ونراه يضع للفصاحة حدا ينبىء عن الظهور والبيان ومنها أفصح اللبن إذا أنجلت رغوته ، وفصح فهو فصيح ويوثق كلامه هذا يقول الشاعر :

* وتحت الرغوة اللبن الفصيح *

ويقـــال أفصح الصبح إذا بدا ضوءه ، وأفصح كل شىء إذا ظهر ووضح .

ثم نراه يفرق بين الفصاحة والبلاغة حين يجعل من الفصاحة وصفا الألفاظ ، ويجعل من البلاغة وصفا للألفاظ والمعانى وبذلك لا يكونان عنده وصفين لموصوف واحد ومن ثم فلا يقال عن كلمة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإن قيل فيها فصيحة ، وعليه فيكون كل كلام بليغ فصيحا وليس العكس ومثل لذلك بالكلام المسهب الذى لا يقتضيه الموقف ، ولا يتطلبه الغرض وإنه

سلمت كل كلماته من العيوب التى تفقدها فصاحتها وحسنها إن الكلمات على هذا النحو تعد من الحسن الفصيح، وإن رفضت من الكلام البليغ.

ثم أفاض فى ذكر ما حد الناس به البلاغة وناقش ما قالوه فقال: «وقد حد الناس البلاغة بحدود إذا حققت كانت كالرسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة فمن ذلك قول بعضهم: لمحة دالة، وهذا وصف من صفاتها، فأما أن يكون حاصراً لها وحدا يحيطها فليس ذلك بممكن، لدخول الإشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد وكذا قال آخر، البلاغة معرفة الفصل من الوصل، لأن الإنسان قد يكون عالما بالفصل والوصل، عالما بتمييز مختار الكلام من مطرحه وليس بينه وبين البلاغة سبب ولا نسب ولا يمكنه أن يؤلف ما يختار من تأليف غيره، والحدود لا يحسن فيها التأويل، وإقامة المعاذير، وغرابة الألفاظ لا تدل على المقصود، لأنها مبنية على الكشف الواضح، موضوعة للبيـان الظاهر، والغرض بها السلامة من الغامض فكيف يوقع فى غامض بمثله؟

وكذلك قول الآخر: البلاغة أن تصيب فلا تخطىء، وتسرع فلا تبطىء، لأن هذا يصلح لكل الصنائع..»(١) ويمضى فى طريقه يناقش كل ما حد الناس به البلاغة ثم ينهى تلك المناقشة للتعريفات التى حشدها بقوله: «وفى البلاغة أقوال كثيرة خارجة عن هذا النحو(٢) والفصاحة شطرها واحد جزئيها».

وابن سنان وهو يتحدث عن الفصاحة وضع مقاييس جمالية لحسن الكلمة وارتقائها فى مراقى الجمال حين تكون مفردة، كما وضع مقاييس جمالية لحسن الكلام المؤلف المنظوم وبذلك يكون أول من فصل القول فى تقسيم الفصاحة فيما أعلم إذ قسمها إلى فصاحة للكلمة، وإلى فصاحة للكلام واشترط لتحقيق

---

(١) سر الفصاحة ص ٥٩ الطبعة الأولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
(٢) السابق ص ٦٠.

الفصاحة فى كل منهما شروطا لا تتحقق إلا بها فى الألفاظ المفردة والألفاظ المنظومة على حـــد سواء ومع تحفظنا على بعض ماراه فى مقاييسه الصوتية، ومعاييره الجمالية إلا أنها على كل حال تضع الثوابت من الأسس والدعائم التى تتم على أساس منها عملية اختيار الـكلمة بعد فرز وغربلة وانتقاء وعندئذ تتعين ويستبعد غيرها مما لا يكون موافقا للأسس المقررة الثابتة التى تسلم معها الـكلمة وتصح ، فإذا ماسبكت مع غيرها مما هو فى مستوى حسنها فى تأليف جيد فإن الصياغة الفنية ترقى وتجود .

ولـكى تتحقق الفصاحة فى مجال الـكلمة المفردة رأى أن تـكون منظومة من حروف متباعدة المخارج ثم ذهب إلى عالم الظلال والألوان ليتخذ منه دليلا على صحة وقوة دعواه إذ أن الألوان حين يشتد التباين والتضاد بينهما تصعد فى مراقى السحر والحسن قدما وانظر إلى الأبيض والأسود حين يجتمعان كيف يتفرد كل منهما ويتميز ويتفوق فإن الضد يظهر حسنه الضد ، وأنت ترى بذلك أن الرجل قد أخذ مما يقع فى مجال الرؤية والبصر دليلا لما يدرك من الصوت مما يقع فى مجال السمع إذ دلل من خلاله على أن الـكلمة إذا نظمت من حروف متباعدة فى المخرج كانت فاتنة الحسن سابيه الجمال ، ومما تجمل به الـكلمة وتزدان ، وتدهش وتروع أن يكون لها رنين حلو ، وإيقاع عذب وأن تتفوق على غيرها وتتميز بصوتها الذى يرن بالنغم حين يعانق المسامع ويصافح الآذان من غير اعتبار لبعد مخارج الحروف فى هذا الغير التى فضلته اللفظة المرية بما لتأليفها فى السمع من حسن ومزية ، ثم إن الـكلمة الفصيحة عند ابن سنان ليست متوعرة، ولا وحشية ، ولا مرذولة ساقطة ولا عامية ، جارية على ماجرى عليه العرف الفصيح بعيدة عن مواطن الشذوذ لم يعبر بها عمـــا يكره ذكره وهى معتدلة متوازنة غير كثيرة الحروف ولا يكون تصغيرها تصغير تعظيم على نحو مايصنع المتنبي بكثير من الألفاظ .

وإذا كانت هذه هى رؤيته بالنسبة للفظة المفردة فإن نظرته للـكلام المنظوم

Scanned with OKEN Scanner

لكى تحقق له الفصاحة أن تجمع كل كلمة فيه أطراف الحسن وذلك بأن تأتى وقد سلمت من كل عيب من العيوب التى تفقدها جمالها وتباعد بينها وبين فصاحتها على النحو الذى ذكر فى الكلمة التى لم تنتظم ولم تؤلف . ثم يجب تجنب تكرار الحروف المتقاربة فى الألفاظ المنظومة ذلك أنه إذا كان تكرر الحروف فى اللفظة الواحدة قبيح فإنه فى الكلام المؤلف أقبح إذ أن المساحة التى يشغلها التكرار فيه أكبر وأوسع ولئن ضاقت النفس به فى حيز ضيق وهو الكلمة فكيف بها فيما هو أبعد وأطول

ولذا تراه يتعجب هو وأصحابه من هذه الأحمال الثقيلة التى تضغط بها كلمات هذا البيت على الألسنة حين تدار فى الأفواه محاولة النطق بها فتكبو وتتعثر :

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما
كنا نكون ولكن ذلك لم يكن( )

ولقد وقف ابن سنان أمام هذا العيب وأطال الوقفة وأودد فيضا من المثل والشواهد التى تجلى هذا المأخذ ، وتكشفه وناقش من سبقه كالرمانى وقدامة ابن جعفر مناقشة تدل على بصر ونفاذ رؤية وعلى الرغم من أنه انتفع بما كتبه الجاحظ فى هذا حين قال : « ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر . وإن كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع إنشادها إلا ببعض استكراه . فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر(٢)

إلا أن الفكرة عنده أخذت تتسع ، وتتلون ، وتتشعب وكان للحشد الكبير الذى أمدها به من المثال الشارح أكبر الأثر الذى أثمر أطيب الثمر وآتى آكله

(١) سر الفصاحة من ٦٤ : ٩١ بتصرف .
(٢) البيان والتبين جـ ١ ص ٣٧ طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

Scanned with OKEN Scanner

مضاعفا فى حقل من تلاه من ذوى البيان بحيث أخذوا بعضا مما تدفق به الرجل وأفاض وترى هذا واضحا عند الخطيب بحيث نقول فى اطمئنان إن عيوب الكلمة والكلام عنده جزء مما كتب عنه ابن سنان وأشار إليه فى إسهاب وغزارة ووفرة ومن شروط فصاحة الكلام المؤلف عند صاحبنا أن تكون ألفاظه المنظومة حسنة التأليف فى السمع ولن يكون ذلك إلا مع ترادف الكلمات المختارة، وتواترها، وتتابعها، وتكاثرها.

إن اللفظة التى تلاءمت فى حروفها، وتناسبت فى أجزائها، وتساوقت فى مقاطعها، وربطت آصرة القربى بين عناصرها، ولذ فى السمع إيقاعها، وجمل فى الأذن رنينها حين تنظم مع المشاكل لها المتوافق مع كل شىء فيها، المتلائم مع جاراتها الموصول بروح الإلف مع ماقبلها وما بعدها. فإن هذا النظم يشيع أجواءاً من النغم الساحر ويبعث ألوانا من اللحن المنسق الجميل الذى تعشقه الأذن ويهتز له الفؤاد، ويطرب بسببه الوجدان والكلام المؤلف من ألفاظ متجمعة ومتواترة على هذا النحو من غير نشاز فى رنينه وإيقاعه هو من الكلام الفصيح.

ومما يضاف إلى هذا مما يعد شرطا من شروط الفصاحة للتعبير الفصيح أن توضع الألفاظ فى موضعها حقيقة أو مجازا بحيث لا ينكر الاستعمال وضعها ويتحقق ذلك بألا يكون فى نظم الكلام تقديم أو تأخير يتعقد معهما المعنى، ويغمض بسببهما فهم التركيب إن فصاحة الكلام إنما تنبعث من صحة وقوة التركيب ويتحقق ذلك من بين مايتحقق بتقديم الكلمة أو تأخيرها ولكنه تقديم أو تأخير بحساب ووزن إذ أن الكلمة يدفع بها إلى الأمام فتتقدم، أو تزحزح إلى الخلف فتتقهقر وتتأخر؛ لأن هذا موطنها، وذلك مكانها فى مثل هذا الغرض الذى سيق التعبير من أجله، والذى جاء ليبعث فيه الحياة قوية حارة نابضة وجياشة ولكن التقديم والتأخير حين لا يكونان على هذا النحو

وإنما يأتيان مضطربين مختلطين ، مشوشين فلا تكون معهما فصاحة ، ولا يطل من خلالهما بيان .

إن الكلام الذى يشرق بالفصاحة ، هو الذى يكون ناصع العبارة غير مغلق ولا مستبهم ، فإذا ساء نظمه ، وفسد ترتيبه ، واختير مالا يدل على الفكرة بوضوح منه ، وجرى فى تأليفه على خلاف مقاييس أهل اللغة ومعاييرهم ، وموازينهم فاحتاج فى فهم معناه إلى جهد يفوق الجهد المبذول فى فهم مثله فإن ابن سنان يسقط هذا الكلام من حساب الفصاحة ، ويجعله من المطرح المرذول الرخيص الساقط .

إن فصاحة الأسلوب تتحقق بقوة الصورة ولذا فإن وضع الألفاظ حقيقة أو مجازا فى موضعها مطلب أساسى وأصيل لقوتها ، وخصوبتها ، وحيويتها ومن ثم فإن كل ما يحقق هـــذا الوضع ، ويعين عليه ويساعد ، يعد من الفصاحة فى القلب والصميم .

إن كل وسائل التصوير حقيقية أو مجازية يجب أن تتشابك وأن تتناصر ، وأن تتزاحم ، وأن تتكاثر . فى إيجاد أنماط وأنساق تعبيرية تحلق فى القمة فصاحة ، وجمالا ، وروعة أداء . وإنك لملاق ذلك فى حسن الاستعارة وفى روعة الكناية ، وفى صحة التشبيه ومطابقته لمقتضى الحال ، وحلاوة السجع ، وجمال الترصيع وغير ذلك وهــذه كلها تنادى على الفصاحة من مكان قريب(١) .

وبهذا يكون ابن سنان قد أخذ بيد صانع الكلام ، ووجهه إلى كيفية نسج عباراته ، وتأليف كلامه . وحقق ذلك من خلال مستويين من التعبير الثانى منهما مرتب على الأول .

ذلك أن منشىء الكلام عندما يحاول أن يوجد أنماطا فنية فإنه يستنجد

(١) انظر سر الفصاحة من ص ٩٢ : ١٨٥ بتصرف .

Scanned with OKEN Scanner

بمخزونه اللغوى ليجده بما عنده ثم ينتقى منه مفردات بعينها ليستخدمها فى الأداء اللغوى الذى يريد أن يؤديه ثم يرتب هذه المفردات وينظمها بحيث تتناسب وتتلاءم فى تنظيمها مع السياق الذى يدور الكلام فيه وبمثل هذا يوضح أن الكلمات المتناثرة المفرقة لا تقيم تعبيرا بلاغيا بالمعنى المطلوب إلا أنها أشبه ما تكون باللآلىء التى لابد من تخيرها وانتقائها قبل نظمها وسبكها فإذا تم الانتخاب والانتقاء فإن النظم إنما يجمل ويحسن حينما تنظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها المتناسبة فيها حتى لا يجىء التعبير قلقا نافرا عن مواضعه وإنما يكون متجانسا فى توافق، وتلاؤم، وانسجام. وأعتقد أن شروط جودة الكلمة وحسنها عند ابن سنان قد جاءت مفصلة موسعة ممدودة بالشواهد الغزيرة المتلاحقة التى شرحت المصطلح فى إفاضة وكثرة وأن أثرها ظهر فى المتأخرين ولكن فى كزازة، وضيق، وشح.

الفصاحة والبلاغة عند عبد القاهر :

والإمام يرى أن الفصاحة والبلاغة لفظان مترادفان فهما وصفان لموصوف واحد يدلان عليه، ويشيران إليه ولا تفاوت بينهما فى تلك الدلالة. ويجعل منهما نظيرين للبيان والبراعة وما يشاكل كل ذلك.

ويبين أن الفصاحة والبلاغة وما يجرى مجراهما مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه المزية والفضل إليه دون المعنى معناهما : وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها فى صورة أبهى وأزين، وآنق وأعجب، وأحق بأن تستولى على هوى النفس، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له.

فأنت تراه وهو يسوى بين الفصاحة والبلاغة فيما يدلان عليه ويبين أن معناهما : حسن دلالة الكلام على المعنى الذى يؤديه فى صورة تعبيرية هى أبهى وأبين، وأزهى وأزين ولا سبيل الى ذلك إلا بأن يؤتى بالمعنى من الجهة

Scanned with OKEN Scanner

التى هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به .

ولقد ذهب الإمام إلى أن البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة . لا ترجع إلى اللفظ ، وإنما ترجع إلى النظم ، وكيفيات الصياغة ، وصورها ، وخصائصها فليس اللفظ وإن عذب جرسه ، وتساوق نظمه بالذى يرفع من أقدار الكلام ، وينزله منازل الفصاحة الراقية إلا إذا جاء إلى المعنى من الجهة التى هى أصلح لتأديته .

ومن ثم فلا يكون للفظ المفرد وزن فى فصاحة أو بيان ، أو بلاغة ؛ لأنه لا مزية ولا فضل للألفاظ فى ذاتها فهى رموز اصطلاحية ، وإشارات للفكر ، وعلامات على طريقة ، لا تعطى إضافات جديدة ، ولا تزيد شيئا فى مساحة المعرفة ، فحينما يطلق اللفظ نفهم معناه من إطلاقه ولا فضل له فى شىء إلا أنه أشار الى ما وضع له ، ورمز إلى ما دل عليه من غير زيادة فى معنى ، ولا إضافة إلى معرفة فاللفظ معروف بحكم وضع الواضع له من غير نظر إلى حسن ولا إلى قبح فيه فهو دلالة على شىء ، واسم لمسمى معروف . ولكن القيمة التى تعلو فوق كل المنازل إنما تنبثق من المفردات حين ينضم بعضها إلى بعض وتجتمع مع غيرها فى تواصل وتراحم وتواد وتعاطف ، فينتظم منها كلها كلام ، وتنبعث منها كلها طاقات وإمكانات ، وتنكشف منها كلها أسرار ، وينتظم من التقائها واجتماعها معان .

وإذا وصف اللفظ المفرد بشىء من الفصاحة أو البلاغة فإنما يوصف به من خلال دلالته على معناه ، ومن ثم فإن اللفظ المفرد على هذا النحو لا يفضل زميلا له ، ولا يتفوق على غيره من الألفاظ المنفردة إلا بواحد من أمرين :

أن يكون أحدهما مستعملا مألوفا ، والآخر غريباً وحشياً ، وأن يكون أحدهما خفيفا على اللسان ، سهلا عند النطق والآخر على خلاف ذلك .

وهكذا تظل المفردات فى مرتبة واحدة لا فضل لواحد على آخر حتى يأخذ مكانه من النظم ، ويتفاعل مع السابق واللاحق له فى السياق فجمال الكلمة إنما

ينبع من خلال المجال الذى أطلق طاقاتها ، واستخرج فتنتها وسحرها ويوثق كلامه بأن اللفظ المفرد إنما تظهر مزيته من خلال إنصهاره فى النظم ، وتلاحمه مع السياق حين يبين أن الألفاظ لا تظهر لها ميزة ، إلا من خلال ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها وآية ذلك أنك قد تتوقف أمام اللفظ الواحدة فتراها تؤنسك فى موضع وتراها هى بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر. ثم يأخذ بيدك ويضع بين ناظريك الشاهد ، ويدلك على المثال حين يعرض عليك كلمة من الكلمات تطالع فى مطالع مختلفة ثم يكون لها فى كل مطالع لون وفى كل كلام وزن وقدر . انظر إلى لفظ « الأخدع » فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحترى :

وإنى وإن بلغتنى شرف وأعتقت من رق المطامع أخدعى

ويعلق عبد القاهر على لفظ (الأخدع) فى البيتين بقوله : فإن لها فى هذين المكانين مالا يخفى من الحسن ، ثم إن تأملتها فى بيت أبى تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ماوجدت هناك من الروح والخفة ، والإيناس والبهجة .

والثقل على النفس إنما جاء من تلك الاستعارة التى جاوزت حد البعد فى الأخدعين ونسبتها إلى الدهر ذلك أن للاستعارة حداً تصلح فيه فإذ اخرجت عنه ساءت وقبحت .

ومثل (الأخدعين) لفظة (الشىء) .

انظر إلى قول عمر بن أبى ربيعة :

ومن مالىء عينيه من شىء غيره

إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

Scanned with OKEN Scanner

وإلى قول أبي حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

ويعلق عبد القاهر فيقول : فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول ثم انظر إليها في بيت المتنبي :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم وليس يخفى أن لفظة «الشيء» في بيت عمر بن أبي ربيعة واضحة مفهومة لأنها كناية عن المرأة وفي بيت أبي حية كناية عن الزمن الليل والنهار أما في بيت المتنبي فهي غامضة مبهمة والمراد منها غير ظاهر ومن هنا تضاءلت قيمتها .

ثم يعلق عبد القاهر على ذلك فيقول : « فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبدا أو لا تحسن أبدا »(١) .

وبمثل هذا تجهز كلمات الإمام على كل كلام .

ويظهر أن الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة إنما ترجع كلها إلى النظم ؛ لأن في انضمام الكلمات بعضها إلى بعض وتلاحمها ، وتفاعلها ، وتوافقها ، وانسجامها ، وإستخراج طاقاتها وقدراتها تكون المزية ، ويكون الفضل والجمال .
أما الألفاظ من حيث هي ألفاظ فلا تفاضل بينها ، ولا تفاوت إلى على نحو ما بيناه .

على الطريق :

والآن ونحن نمضي على الطريق وبعد أن قطعنا أشواطا من الرحلة مع

(١) دلائل الإعجاز طبعة رشيد رضا مكتبة القاهرة ١٣٨١ — ١٩٦١ من ص ٣٠ : ٣٥ بتصرف .

الكتب التى تربطها بالبلاغة علاقة حميمة، وصداقة وثيقة، وقرابة قريبة، والتى امتزجت بها، وتنفست عبيرها فكانت بمثابة الروح تسرى فى الجسد فتبعث فيه القوة، والحركة والحياة، والنماء. والقلب ينبض فتتدفق الدماء حارة غزيرة فى شرايين الجسد الوهنان فينشط ويقوى ويشتد. وفى ضوء هذه العلاقة أقامت الصوى، ونصبت المعالم، وفتحت كوى واسعة أشرق منها البحث البيانى، وتألق، وأضاء فبدد المجاهل والمعامى، وقشع ظلام العقل والفكر، وبسط ألوان الحديث المفتن، ورفع للناظرين منارات من البيان.

وليس يخفى وقد طفنا مع مصطلح البلاغة والفصاحة أننا طالعنا أفانين من القول ومناحى من البيان ورصدنا اتجاهين دار معهما المصطلح على اختلاف فى السعة أو فى الضيق.

إذ رأينا من يسوى بين الفصاحة والبلاغة وعليه فيكون المراد منهما واحد فهما إذن وصفان لموصوف واحد مهما كان هناك من اختلاف فى الدلالة اللغوية.

كما رأينا من يلحظ اختلاف الدلالة اللغوية لكل منهما فيبنى عليها اختلافا فى الدلالة الاصطلاحية(١).

وإذا كان المتأخرون قد ارتضوا الاتجاه الثانى وعرفوا الفصاحة بما ينبئ عن الظهور والإبانة ويوصف بها المفرد مثل كلمة فصيحة والكلام مثل كلام فصيح وقصيدة فصيحة ويوصف بها المتكلم أيضا يقال: كاتب فصيح وشاعر فصيح والبلاغة وهى تنبئ عن الوصول والانتهاء يوصف بها الكلام والمتكلم(٢).

وتعريف الفصاحة السابق قد أثار حوله جوا من الجدل والمناقشة وقفزت

---

(١) انظر خصائص التراكيب لأستاذنا الدكتور محمد حسنين أبو موسى، ص ٣١ طبعة ثانية.

(٢) المطول ص ١٥، مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠.

بسببه علامات الاستفهام تستنبىء وتستخبر وتتابع وتستفسر .

أين المركب الناقص ؟ ولماذا أهمله التعريف فلم يشر إليه ؟ ذلك أن معنى الفصاحة السابق « ما يوصف بها المفرد والكلام والمتكلم » والمركب الناقص ليس واحـــدا من بين هؤلاء الثلاثة ، لأنه ليس بمفرد إذ المفرد هو ما قابل المركب .

وليس أيضا بكلام ; لأن الكلام خاص بما يحقق فائدة وليس ذلك سوى المركب التام .

ومعنى هذا أنه لا يتصف بفصاحة مع أنه حين يخلص من العيوب التى تفقد الفصاحة يكون منها فى أعز وأغلى مكان .

والمقصود بالمركب الناقص مالا يتحقق معه معنى يستقل بالإفهام حتى يحسن السكوت عليه مثل قول الشاعر :

إذا ما الغانيات برزن يوما وزججن الحواجب والعيونا

إن المركب الناقص على هـــذا الفهم لم يندرج لا تحت فصاحة المفرد ولا تحت فصاحة الكلام وإذا لم يكن تحت واحد منهما فأين يكون موقعه ؟

ذلك هو الاعتراض كما تمثل فى رءوس أصحابه وكما قذفوا به فى وجه تعريف الفصاحة السابق وطلبوا له تفسيرا .

هناك من ردد هذه الشبهة ، وأزال هذا الاعتراض على اعتبار أن الكلام تتسع دائرته ليشمل المركب التام والمركب الناقص على حد سواء على سبيل المجاز المرسل من باب اطلاق الخاص (المركب التام) وإرادة العام (المركب الناقص والتام) .

والقرينة مقابلته بالمفرد . وبذلك يتهاوى الاعتراض ويسقط وعلى هذا فيكون موقع المركب الناقص مع فصاحة الكلام .

ولكن إزالة الاعترض على هذه الصورة لم يقابل بالرضا والتسليم وإنما

Scanned with OKEN Scanner

أثيرت فى وجه العواصف ، ووضعت فى طريقه العقابيل ودفع بما يفيد أن اللغة سماعية وأنه ليس لنا أن نقول فيها بغير ماقال أصحابها وأهلوها وقد قالوا عن المركب إنه فصيح، ولم ينقل عنهم أنهم وصفوه . بأنه كلام فصيح وإذا كانوا قد أثبتوا له الفصاحة فلا يستلزم هذا الإثبات وصفه بأنه كلام . ومن ثم فإن اندراج المركب الناقص تحت فصاحة الكلام غير مسلم به وعلى هذا فيكون داخلا فى فصاحة المفرد وإن كان مركبا وليس هناك ما يمنع من أن يكون معنى قولهم : إن هذا مركب فصيح أى أن مفرداته فصيحة . ومن ثم فيكون داخلا فى فصاحة المفرد من غير تأويل وبذلك تتداعى الشبهة وتتبدد و تتساقط .

ومن الممكن التعميم فى المفرد ليراد به كل ماليس بكلام تام فيشمل المفرد والمركب الناقص معاً وبذلك يكون المركب الناقص واقعا تحت فصاحة المفرد الذى يتسع له ، ويستوعبه ومما يوثق هذا ويقويه أن المركب بشقيه (التام والناقص) لم يعهد إطلاق اسم الكلام عليه إلا بالحمل على المجاز - كما سبق - أما إطلاق المفرد على ماليس كلاما فحقيقة عرفية مثل إطلاقه على غير المثنى والجمع فى (باب الإعراب) ومثل إطلاقه على ماليس مضافا ولا شبيها بالمضاف فى (باب المنادى) ومثل إطلاقه على الجملة والشبيه بها فى (باب المبتدأ والخبر) وإدخال المركب الناقص فى المفرد حمل على الحقيقة وإطلاق الكلام على المركب مطلقا التام والناقص - مجاز مرسل - والحمل على الحقيقة أولى وأحق من الحمل على المجاز لأنه خلاف الأصل(١).

والآن هل تابعت هذه المعركة ؟ وهل أصغيت إلى دوى رحاها الدائرة ؟

وهل تناهى إلى سمعك هذا الجدل الساخن وقد علا صوته ، وطن طنينه ؟

وهل رأيت فيه شيئا راع عقلك ، وهال حسك ؟

وهل أشبع حاجة فى نفسك وملأ فراغا فى فؤادك ؟

---

(١) المطول ص ١٦ - ١٧ - والبنانى على مختصر السعد ج ١ ص ٤٢ .

إن كثيرا من الباحثين لا يردن فى مثل هذا الحوار الذى طالعته الآن شيئاً من فائدة وأنك إن وجدت فيه فلن تجد سوى إهدار الوقت ، وتشتيت الجهد ، وتبديد الطاقة ، ووأد العمر فيما لا يثمر وأنك لو جمعت مثل هذا الجدل وكل ماهو على شاكلته ومثاله وذهبت به إلى مستنقع عميق ، وألقيت به فى أعماقه بحيث لايدرى أحد عنه شيئا لأرحت من هم ثقيل ، لكن وحتى لا يجرفنا الحماس ، ولا يبتلعنا الموج الغاضب فتتالى أصواتنا بحق أو بباطل تريد أن تنفض عن كاهل التراث هذه الأحمال الثقيلة التى يئوده حملها . وفى غمرة هذا الإحساس المعتلج الضاغط أليس من الإنصاف أن نتوقف لنتساءل .

هل نستطيع أن نتجاهل أن مثل هذه المناقشات والتى كانت تدور حول فكرة من الأفكار ، وتقليبها على كافة الوجوه ، ومناقشتها من كل الاتجاهات مع الأخذ فيها وإنما كانت تتغيا سلامتها ، وصحتها ، وبعدها عن الخطأ حتى تستقر فى النهاية واضحة مشرقة بحيث لاتدع مجالا لطعن طاعن ، أو مكانا لنقد ناقد وأنها كانت تساعد على تمحيصها ، والتدقيق فى كل شىء فيها ، وما يتصل بها حتى مستويه ؟

ثم هل يستطيع أن يجحد كيف استطاعت تلك المناقشات التى تتصاول فيها الآراء وتتدافع أن تجعل مايتناوله من قضايا محددة بحدود ، ومرسومة برسوم ، وأن تضبطها وأن تغرس فيها القدرة على سوق الحجج ، وإيراد الأدلة .

ثم هل نتذكر فضل المحاورات ، وما ملأت به صدور المتصاولين المتحاورين من الصبر ، والمثابرة ، وتحمل مايضنى ويرهق فى سبيل الحقيقة العلمية ، وتجليتها ، وكشفها ؟

ثم ألا نستطيع أن نقول : إن جوانب متابعة الفكرة ، وإثارة الاعتراض ، والرد عليه ، ثم الرد على الرد قد تمود أصحابه أن يرتبوا أفكارهم وأن يجعلوها تنقدح فى أذهانهم ، وأن يجعلوا من مذاهب المنطق وقضاياه أدوات للإقناع ، ووسائل لتبديد مايمكن أن يثار من شبهات فى قوة وصبر وذكاء ؟

إننا لو قلنا بذلك ماخالفنا منطق العقل . فضلا على أن متابعة الآراء وهى تتطاحن وتتصارع . والإصغاء إلى مايوجهه أنصار كل رأى إلى الرأى المخالف من تفنيد ، وتضعيف وقيام الفريق الآخر بالرد فى حسم وقطع هو متعة نفسية وعقلية معاً .

إن الاندفاع فى حماس نحو العمل على إقصاء بلاغة الشروح و تنحيتها بحجة ماتفيض به من مجادلات لفظية وما يتردد فيها من سوفسطائية فارغة فضلا عن احتذائها الفلسفة فى بحوثها التى لا ثمرة لها ، ولا طائل من ورائها مع مابها من إبهام ، وإغلاق ، وغموض هو اندفاع فيه غير قليل من التجنى .

إذا كانت غايتنا من البلاغة ودرسها أن ننشىء أعمالا أدبية أحسن وأقوم وأمثل فمن الذى يهدى المنشىء ويوجهه إلى إيجاد تلك الأنساق التعبير به، والأنماط الراقية ؟ من الذى يعينه ،ويساعده،ويأخذ بيده ، ويمده بالقاعدة التى تحكم عمله؟

وإذا كانت مهمة الناقد أن يحكم على الأساليب فما هى أدواته الفنية التى يحكم بها ؟ ماهى مقاييسه التى يقيس عليها ويحكم من خلالها ؟ ثم كيف يستطيع أن يمارس معاناة تحليل النصوص بعيدا عنها ؟

إننا لا ننكر فضل القريحة الوقادة ، ولا الفطنة اللماحة ، ولا الحس المرهف ، ولا الذوق المصقول الذى اكتسبه صاحبه من طول الدربة ، وكثرة الممارسة ، وشدة المعاناة ومداومة التقليب فى حر القول ، وبليغ الكلام.

لكن هذا كله إذا لم يعمل من خلال العيار الذى يضبط ، ويدقق ويزن ، ويضع الحدود التى تفصل الحدود التى تفصل وتوضح فكيف إذن يعمل ؟

إننا ونحن ندعو إلى الضبط والتقعيد واستلهام البلاغة روحها وأحكامها وقوانينها بعيدا عن المنطقة المتكلفة ندعو قبل ذلك وفوق ذلك إلى أن نعرف مهمة البلاغة : ومهمتها أن تكسب صاحبها أولا فصاحة فى اللسان ، وخلابة فى البيان ، وحلاوة فى الحديث وأن تعينه على صفاء الطبع و توقد القريحة ؛

وشدة الفطنة ، بحيث تخلق منه فنانا يعلم مواقع الكلم الطيب فيقع عليه، ويشدو به فى طواعية ، واقتدار ، وعدم مكايدة ثم تمده بالقدرة على التهدى إلى مادق وخفى من الأسرار التى تكون وراء الجمال أو الدمامة فى الكلام .

وتساعده بأدواتها الطبيعية على إرهاف الحس ، وإثراء الذوق فيتدسى فى أطواء النصوص ، وأغوارها يدرك عمق اللغة فيها ، وخصوبتها وسمو الإلهام الذى فجر ينابيعها وسرائر بناء التراكيب وطرائق صياغتها وبذلك تثمر البلاغة أطيب الثمر وتجمع بين جلال الفكر وجمال الذوق والحس .

قبس من الفصاحة :

سبق أن مضيت مع ابن سنان وهو يحلق بك فى أجـــواء الفصاحة ، وأصغيت إليه وهو يبسط بين يديك ألوانا من الحديث يطلعك فيها على أنواع من العلل تصيب الكلمة مفرقة أو مجتمعة فتفقدها وتفقد الكلام معها نصاعة الفصاحة ، وإشراقة البيان ولقد أفضينا فى ذلك بما لا نجد بنا حاجة إلى أن نكرر ماسبق أن قلناه فنعيد ولكن الذى أريد الإشارة إليه أن أؤكد ماطرحته هناك من أن ابن سنان فى هذا الباب كان مصدرا أصيلا للمتأخرين من ذوى البلاغة الذين أخذوا بعضا مما أفاض الرجل فيه فى هذا المجال .

وأقول بعضا، لأن حديث صاحبنا كان مبسوطا ، واسعا ، وشواهده كانت متدافعة ، متزاحمة . وهم قد أخذوا منها ما أخذوا . ولكن فى كزازة وشح وضيق .

إن الكلام لكى تجود صنعته ، ويحكم نسجه ، وتشرق بالجمال صفحته لابد أن تبرأ ساحته من آفات التأليف التى تذهب بعافيته وسلامته فلا يجرى فى تأليفه إلا على ما أقرته مقاييس اللغة ، وارتضاه أهلوها وأصحاب الدراية بها ، ولا يكون ضعيفا فى صياغته مشوشا مضطربا متداخلا تضل الفكرة فى غيابته ، وتغيم فيه غيما يشق معه الاهتداء إليها إلا بعد جهد ، ومشقة ، وإعادة فى ترتيب

الكلمات، وتنسيق لها وتنظيم ولا تكون مفرداته واضحة الدلالة على ما يراد أن تنهض به من معنى بل يجب أن تدل على المراد منها فى يسر وفى سهولة، وأن تكون متلائمة، متجانسة متوافقة، تجمعها روح التواصل والتوادد فلا تكد اللسان ولا ترهقه، وإنما تسيل عليه فى خفة ويسر.

إن الكلام الذى يفيض بالجلال والعظمة، ويترقرق بالجمال والسحر والروعة هو الذى يجمل فيما يجمل باتكائه على اللغة فى نظامها الذى يحكمها، ويحكم وضع المفردات فى الأنساق التعبيرية، وإذا كان نظام الجملة يقضى بأن يكون المبتدأ والخبر متجاورين، وأن يكون الفعل والفاعل والمفعول كذلك فإن هذا لا يعنى الاطراد الذى لا تتحقق بدونه فصاحة. ذلك أن السياق قد يتطلب وضعا معينا يقتضى تغييرا فى نظام الجملة لكى يحسن به الأداء الفنى ويكمل به الشكل الأدبى. وهنا يجب النزول على ما يفرضه السياق ولن يكون فى ذلك خروج على ما لا يجب الخروج عليه، ولا انتهاك لمبدأ يجب ألا ينتهك بل إن هذا الخروج الذى يأتى محكوما بالسياق يكون التخلى فيه عن وضع الرتب مطلبا ضروريا لنهوض الكلام بما يجب أن ينهض به من وفائه بح المعنى وعندئذ لن تكون زحزحة الكلمات عن موطنها بالتقديم أو بالتأخير عيبا وإنما ستكون داعية حسن، ومثار بهجة وفتنة إذ أنها ستحقق البلاغة بـ تفرض من مقال يطلبه المقام.

إن الكلام الفصيح لابد أن تكون كل عناصره التى يتحقق منها بناؤ صحيحة سليمة وإنما تسلم الكلمة حين تبرأ من كل ما يصيبها بالجفاف، والنضوب والذبول وسلامة الكلمة بمعنى فصاحتها تدور حول سحر إيقاعها، وجر ترجيعها وتنغيمها، وعذوبة ترديدها وترنيمها، تروع حسك بخفتها، وشفافيتـ وتأسر نفسك برشاقتها، وعذوبتها. ينطلق بها لسانك فى لين وتدفق و لا تكده ولا تضنيه وإنما يجرى بها جريانا من غير أن يتعثر فى الطريق يتوقف ترف بالحسن، وتتفجر بالخصب، أطلقتها حناجر الشعراء فى الفضا

الواسع العريض . فسطعت فى كل أفق ، وتألقت فى كل مطالع ، وأشرقت فى كل مكان ، ودوت فى كل ناد ، وغنى بها وتمرد من لم يكن يشدو ويغنى . ثم هى كلمة فيها فصاحـــة اللسان العربى جاءت على استعماله ، ووردت على قدر معهوده ، ومألوفه .

إن الكلمة حين تتحرر مما يرهقها ، ويضنيها ، ويصيبها باليبوسة والانطفاء ، والحول تتحرر ساعتها من المعايب التى تمتص نضارتها ، وتقتات حيويتها ، وتصير كلمة خفيفة رشيقة تفيض رقة ، وتقطر عذوبة ، وتنحدر على اللسان فى خفة ، وتنساب حروفها إلى الأذن فى هدوء . فتهتز من سحر النبر ، وحسن الإيقاع ، وتطرب من حلاوة النغم وعـــذوبة الترجيع . وتلك هى الكلمة الفصيحة التى تعبث بالأفئدة والقلوب ، وتتملك منازع النفس والوجدان ، وتبقى حية نابضة رائعة ماراع الجمال ، خالدة مادام الخلود .

أحب أن أقدم بين يديك مثالا للمشرقات من الكلمات الفصيحات تثمل لإيقاعهن ، وتطرب لتنغيمهن ، وتملأ قلبك وحسك من فاتن حسيهن ، يجرى بهن فى سهولة ويسر لسانك ، وينسكبن لحنا موقعا فى سمعك . نظمن فى قلائد فكانت سابية الحسن صارعة الجمال تتنفس بالمدهش العجيب من القول ، وتترقرق بالمثير المعجب من البيـــان ، وتفيض بالرائق المشرق من أفانين الكلام .

انظر إلى أبيات البحترى فى وصف الربيع ولا إخالك حين تصغى لجلال ترجيعها وشدوها ، وتردد النظر فى سمو الإلهام فيها ، وفيض العبقرية المتدفق من خلالها وستتفتح لسحرها منافذ حسك ، وتتسرب فتنتها إلى أطواء قلبك ، وتنفذ إلى أعماق نفسك ، سترى معها كيف تنفض الطبيعة الكرى عن عيونها وتتيقظ وكيف طوف بك من خلال هذه الأبيات حول جنات وأرفة الظلال دانية القطوف شهية الثمر ، وكيف ترى فيها أنس النفس ونشوة الروح ، وفتوة الجسم ونضرة النعيم . وكيف ترى الحياة وهى تنشط وتدب فخضر المروج ،

وتزهر الرياض وتتفتح الأكمام وتتعطف الجداول، وتتعانق الأفنان وتتشابك الفروع ويرق النسيم، وتصدح الأطيار وتسجع البلابل وتهدل الحمائم والآن إلى الأبيات إلى حديث الروض، وتمتمة الزهر، ولسان الطبيعة واختيال الربيع (١):

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النوروز فى غلس الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد النـدى فكأنه يبث حديثا أمس مكتما
ومن شجر رد الربيع لباسه عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيـون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته يجئ بأنفاس الأحبة نعما
فما يحبس الراح التى أنت خلها وما يمنع الأوتار أن تترنما

والآن وبعد أن انسابت أصوات الشعر إلى مسامعك فى موادعة، وهدوء وانسكبت فى داخلها نقية كأنها أصوات الفضة، طاهرة كأنها تسبيحة الملائكة، عذبة كأنها سجع البلابل صافية كأنها قطر الندى هل ترى فى أية لفظة منها ثقلا أو صعوبة؟ هل تلمح فيها سماجة أو خامة؟

هل يتدفق بها لسانك فى لين وسهولة ويسر أم يكبو بها ويثقل ويتعثر؟

هل تلمس فيها بعدا أو إغرابا؟

هل تجد فى كلماتها مايشق عليك أو يغمض بحيث تحتاج إلى كد الخاطر، ورشح الجبين فى سبيل فض مغلقها، وكشف مستبهمها؟

هل تمتزج كلماتها بنفسك، وقلبك، وتتدفق معانيها إلى ذهنك، وعقلك، وتحس أن روح الإيناس تسرى فيها، وتجمعك بها؟

---

(١) ديوان البحترى ج ٤ ص ٢٠٩٠ - ٢٠٩١ دار المعارف الطبعة الثانية.

Scanned with OKEN Scanner

وهل ترى فيها مجانبة لأقيستهم ، أو ورودا على خلاف ما طبعت عليه ألسنتهم ونطق به صبيانهم قبل كهولهم ؟

هل رأيت الفصاحة وقد انبثت من خلال الظلمات ، وتوزعت على كل الأبيات . فأشاعت رضى العاطفة ، وسلام القلب ، وطمأنينة النفس ؟

أرأيت إلى دواعي الحسن فى صورة الربيع كيف تشد الشاعر إلى تفتح الورود ، وإلى رفيف النسيم ، وإلى زينة الروض وإلى عبير الخمائل ، وفتنة القلوب ، وسحر العيون حتى ليكاد من حسن نباعته أن ينطق وأن يتكلم ؟

هل رأيت الورد المتثائب فى كسل كيف يعود إليه النشاط بعد فتور ؟

وهل استمعت إلى حديث الندى الذى يبثه إلى الورد فى حب وحنان وشوق وقد كان من قبل مكتما ؟

وهل أبصرت الأشجار الجافة اليابسة وقد سرت فيها دماء الحياة فإذا بالأغصان الذابلة تخضر ، وتنتعش ، وإذا بالفروع العارية تلبس حللها وتزدهر بعد أن كستها خضرة الربيع وإذا بأكمام الزهر وأفواف الوشى يبعثان أسرار الجمال ، ويتغنيان بها ؟

أرأيت إلى الدمامة تبصرها العين فى أشجار الشتاء أسقط الصقيع أوراقها ، وأودى بماء الحياة فيها كيف تتحول إلى جمال وحسن بعد أن رد الربيع إليها فتنتها الذاوية ، وشبابها المفقود ورواءها الضائع ؟

ومن شجر رد الربيع لباسه عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما

أرأيت إلى النسيم فى رقته وطراوته كيف يرف فيحمل فى رفيفه إلى فؤاد الشاعر الصب المشوق إقبال الحياة ، وأحلام المنى من خلال أنفاس الأحبة التى امتزج بها عبهرى النسيم ومشت إليه فى خلاله :

ورق نسيم الروح حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعما

Scanned with OKEN Scanner

إن الأشواق لتتنادى ويدعو بعضها بعضا ، وإن هفهفة النسيم فى طراوته ورقته تثير أشواق الشاعر إلى أنفاس الأحبة فى رقتها وجاذبيتها فتبعث الأولى بالثانية ويمثل هذا صور الخيال الموقف على حسب رؤيته له بعينه وهى عين سحرية نافذة الرؤية ترى مالا يرى ، وتلون مالا يتلون ، وتوسع مالا يتسع .

وإذا كان الربيع يبعث الحياة من جديد ، ويجمل الطبيعة بما يجعل منها مثار فتنة ، ويعيد الحياة المفقودة للحياة ، والجمال الغائب للجمال فإنه لمن الحمق ألا يتجاوب أحد مع هذا السحر الذى يدعو إلى المتعة والغبطة ويحرك كوامن النشوة والمسرة والرغبة . مادام كل ذلك فى نطاق المباح الحلال :

فما يحبس الراح التى أنت خلها وما يمنع الأوتار أن تترنما

والآن ننبه إلى ماسبق أن قلناه فى فصاحة الكلمة ، من خفة ورشاقة ، ويسر على جريانها على اللسان وعدم إغرابها ، وبعدها ، ووحشيتها وموافقتها لما جرى عليه استعمالهم ونطقهم خذ هذه المقاييس وطبقها على كل كلمة قرأتها ومرت بك فلن تجد كلمة ندت أو خرجت على ما طالعته من معيار تقاس به الفصاحة إذ لن تجد كلمة واحدة دار بها لسانك هنا إلا وقد تحقق لها من أسباب الفصاحة ما يجلعها منها فى القلب والصميم .

ودع ذا واستمع إلى قول أبى تمام :

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت عشواء تالية غبسا دهاريسا

واطلخم الأمر : بمعنى اشتد وهو لفظ تجد فيه من الصعوبة عند النطق به ، ومن نبو السمع عنه مايذهب به بعيدا عن الفصاحة فيما أرى مهما يقال إن إختلاط الأمر يحتاج فى الإفصاح عنه إلى هذا اللفظ بما يمثله من اختلاط فى الحروف ، وصعوبة عند النطق بها .

وغبسا : جمع غبساء الشديد الظلمة .

والدهاريس : جمع دهرس وهو الداهية والمصيبة .

Scanned with OKEN Scanner

حاول أن تقرأ هذا البيت مرة وتأمل وأنت تنطق به كيف تكون حال كلماته على لسانك هل ينطق بها فى يسر وسهولة أم يحس بالإرهاق والثقل والمشقة ؟

هل ينطلق بها ويتدفق أم يتوقف معها ويتعثر ؟

هل يواتيك المعنى فى سهولة ويسر أم أنه يشق عليك ويغمض ؟

ثم وازن فى الأداء الصوتى ، وسفارة المعنى بينه وبين ماسبق تجد التباين الشديد بينهما وتدرك أن المسافة الفاصلة بينهما هى المسافة بين الحسن الفصيح، وبين السمج البغيض .

ثم انظر إلى الثقل الأشد عند النطق بالكلمة مما يخرج بها بعيدا عن مجال السهولة ، ويقذف بها مع المتنافر الصعب الثقيل الذى يكد اللسان ، ويرهقه . ومن ثم ترى بينه وبين الفصاحة وشيجة من الوشائج « ولا صلة من تآلف أو تواد أو تواصل كما ترى فى لفظ « الهعخع » بمعنى النبات حين سئل أعرابى عن ناقته فقال (تركتها ترعى الهعخع) ولو حاولت أن تنطق بتلك الكلمة لتدرك بنفسك مقدار ما بها من صعوبة على اللسان لوجدتها تبلغ حدا كبيرا إذ أن كثرة حروف الحلق فيها من « الهاء ، والعين ، والخاء ، والعين ، كثرة مرهقة قد أعان على هذه الصعوبة ، وساعد عليها « وجعلها تأخذ منها بأ كبر قدر ، وأوفى نصيب ؛ ولذا قالوا عن التنافر فى مثل هذه الكلمة إنه تنافر شديد . على أن الصعوبة قد توجد على نحو أقل مما هى موجودة عليه فى مثل هذه الكلمة والبلاغيون يطلقون عليه التنافر الخفيف ومثلوا بمثل قول امرىء القيس :

غدائره مستشزرات إلى العلى   تضل العقاص فى مثنى ومرسل

فهم يلحظون فى كلمة : « مستشزرات » ثقلا ينأى بها عن السهل الخفيف ويقارب بينها وبين الثقيل البغيض . وقبل هذا البيت قول الشاعر فى معلقته :

وفرع يزين المتن أسود فاحم　　أثيث كقنو النخلة المتعشكل

والفرع : الشعر الطويل : والفاحم : الشديد السواد كالفحم والأثيث : الكثير النبات نعت لفرع والكاف فى موضع خفض على النعت للأثيث والتقدير أثيث مثل قنو النخلة .

والقنو : العذق : والمتعشكل : المتداخل .

وهناك من الباحثين(١) من يبرأ ساحة مثل الكلمة التى نطق بها امرؤ القيس من الثقل ، لأنه لا يفصل بينها وبين السياق التى وردت فيه وجاءت قارة مطمئنة فى مكانها منه ، ومعبرة عن المعنى بما لا يمكن أن يساويها فى التعبير عنه غيرها . وحتى لا يقضى فى الكلمة بعيدا عن النص الذى وردت فيه من معلقة امرىء القيس فأنا تذكرها من خلال السياق التى تفاعلت معه والتى يتحدث الشاعر فيه عن جمال فتاته فيقول(٢) :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقى　　بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش　　إذا هى نصته ولا بمعطل

وفرع يغشى المتن أسود فاحم　　أثيث كقنو النخلة المتعشكل

غدائره مستشزرات إلى العلى　　تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فهو يتحدث عن جمال فى حسنائه غير معهود من خلال خدها الأسيل الناعم وعينيها الساحرتين الواسعتين ، اللتين تشبهان فى سعتهما ، وجمال شكلهما عيني بقرة الوحش الناظرة إلى طفلها فى حب وحنان ومودة .

ويصف جيدها فى حسنه وجماله . فيجعل منه نظير الجيد الرئم غير أنه لا فحش فيه ، ولا عيب حين تمده كما أنه ليس عاطلا من الحسن والزينة ثم تحدث عن الشعر ، وطوله ، وغزارته ، وكثافته ، وكيف جمعته على رأسها فى صورة

(١) الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه د/ محمد النويهى ج ١ ص ٤٤ : ٤٥ الدار القومية .

(٢) امرؤ القيس ديوانه تحقيق محمد أبو الفضل ص ١٦ ، ١٧ دار المعارف .

غديرة مرتفعة ، ولكن الريح ضربته فتفرق وتوزع على غير ترتيب، وعلى غير نظام منه المثنى الملفوف ومنه الملوى ومنه المرسل المطلق .

فإذا ماحاولت تصفيفه ، وترتيبه فإن المشط تضل طريقها فيه تبعاً لتنوعه ، واختلافه .

إن الحركة المضطربة فى الشعر التى فرقته ، وشوشته ، وأفقدته ترتيبه ، ونظامه لا يماثلها سوى الحركة المضطربة فى اللسان وهو ينطق بكلمة (مستشزرات) .

إن نظم حروف الكلمة على هذا النحو ، وإضطرابها عند النطق بها ساعد على حكاية المعنى التى تصوره وتمثله فالإضطراب الذى شاع بين حروفها جعل اللسان عند النطق بها أشبه ما يكون بالمقيد(١) الذى تتقاصر خطواته ولا تطول ذلك أن اجتماع الحروف فيها على هذا النحو قد أشاع الإضطراب فى حركة اللسان ، وقلل من انطلاقته بها ، وحد من سرعته وسيولته مما يسبب له عند النطق بها الإرهاق والمشقة .وهذا ما يمثل حالة هذا الشعر الذى ماجت به الريح، ففرقته على غير نظام وأحدثت فيه تشويشا ،وخللا ، وإضطرابا . فإذا ما حاولت تصفيفه ، وتسويته فإن المشط لا يتحرك فيه بحرية وأنسياب ، وإنما تكون حركته قصيرة إذ ما تكاد تنتهى حتى تبدأ من جديد والمسافة بين البدء والنهاية مسافة ضيقة وقصيرة فكأن حركة اللسان المضطربة نظرا لقرب مخارج الحروف فى كلمة (مستشزرات) هى أدل على حركة المشط فى مثل هذا الشعر من أية كلمة أخرى ، وعليه فلا تنافر فيها ولا عدم فصاحة ، وإنما تمثيل للمعنى وحكاية له بما يلائمه .

لكن مهما قيل عن نجاح الشاعر فى حكاية المعنى الذى أراد تصويره بهذا اللفظ الذى أتى به حين ماثل بين اضطراب الشعر واضطراب الحروف

---

(١) انظر التركيب لأستاذنا الدكتور محمد حسنين أبو موسى ص ٣٢ ، طبعة ثانية فى هذا الموضوع .

Scanned with OKEN Scanner

فآثر هذه الكلمة واختارها فإن الذوق لا يقبل بها ، ولا يستملحها . وكان من الأليق أن يختار الشاعر للمعنى الذى يحكيه اللفظ الأمثل الذى يصوره فى خفة ورشاقة وسهولة وانسياب ذلك ما أراه وأجدنى مستريحا إليه .

فضلا على أن هذه الكلمة ثقيلة على السمع إذ فقدت رنينها الحلو وإيقاعها المتناسق ، ونبرها العذب مما حال دون طرب الأذن لنغمها ، وعذوبته بداخلها .

وعذوبة الكلمة ، وحلاوة مقاطعها وطرب السمع عند سماع أصواتها مطلب لفصاحة الكلمة كما سبق أن رأينا ذلك عند ابن سنان .

إن الثقل المطلوب فى الكلمة هو الذى يكون مطلبا من مطالب فصاحتها والذى يرقى بها فى مراقى الكمال والحسن بحيث لا يساويه شىء غيره ، ولا يحاكيه سواه . وعندئذ لا نقول : إنه ثقل أخل بفصاحة الكلمة ، وأذهب بخفتها وسهولتها ، وحيويتها ولكن نقول إن ما تحقق لها من فصاحة إنما كان عن طريقه ومن خلاله وبسببه إذ أنه نوع من التناسق الفنى فى الأداء التصويرى كما ذهب إلى ذلك الإمام الشهيد المرحوم سيد قطب(١) فعن طريق لفظة واحدة يظن أن بها ثقلا تنهض فى تصوير موقف وحكاية مشهد ، ورسم صورة انظر إلى قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل »(٢) .

وقف أما كلمة « أثاقلتم » وأعد قراءتها وقد ترى أن حرف (الثاء) المشدد هنا مع التحامه ببقية نظم حروف الكلمة قد أوجد نوعا من الثقل ، والصعوبة

---

(١) انظر التصوير الفنى من ص ٧٦ إلى ٨٠ طبعة دار الشرق الرابعة ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

(٢) الآية ٣٨ من سورة التوبة .

عند النطق بها . ولكن النظرة المتملية الفاحصة ترى أن الثقل هنا هو ثقل مطلوب لبلوغ الكلمة أعلى قدر من الفصاحة ؛ إذ أنه يصور الموقف تمام التصوير حين يحكى قصة هؤلاء المتقاعسين الذين يلجئون إلى الدعة، ويركنون إلى الراحة، ويتباطئون، ويتثاقلون فلا ينهضون لأداء واجب الجهاد، ويرون فيه من المشقة ما يجعلهم يخلدون إلى الأرض، ويلتصقون بها . فلا يحاولون القيام بما تفرضه عليهم تبعات هذا الدين من جهاد متواصل، وكفاح شاق .

إن كلمة « أثاقلتم » هنا ترسم وحدها صورة هذا الجسد المتراخى المشدود إلى الأرض، اللاصق بها، الخالد إليها، الراكن إلى طينتها، الشاعر بمشقة الجهاد، وصعوبة النضال . وكأنه من شدة ركونه إلى التراب ثقيل ثقيل ثقيل يستعصى فى رفعه، والنهوض به على مجموعة من الأشداء ذوى القوة والبأس إذا ما حاولت ذلك . إن اللفظ على هذه الصورة فى تلك القراءة هو اللفظ المشرق الفصيح الذى لا يساويه فى فصاحته لفظ آخر .

ولو حاولت أن تخفف شيئا من الثقل فى اللفظ فأقمت حرفا مكان حرف آخر وجعلت من « أثاقلتم » « تثاقلتم » لرأيت هذه الخفة تذهب بفصاحة الكلمة العالية، وتباعد بينها وبين تصوير الموقف أتم تصوير، وحكاية الصورة أبلغ حكاية ورأيت الفصاحة كل الفصاحة، والحسن كل الحسن « فى أثاقلتم » لا فى غيرها .

واقرأ قول الله تعالى : « وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً »(١) .

وحاول أن تخفف شيئا من الثقل فى كلمة « ليبطئن » بأن تجعل منها « يبطئ » فيكون الأداء فى غير القرآن « وإن منكم لمن يبطئ » ووازن بين صورة

---

(١) الآية ٧٢ من سورة النساء .

الكلمتين من خلال النظم القرآنى « ليبطئن » و « يبطىء » واطرح على نفسك سؤالا فى أى اللفظين ترتسم صورة التبطئة أكثر ؟

ثم وسع دائرة الموازنة لتجعلها فى العبارة القرآنية كلها :

« وإن منكم لمن ليبطئن » وبين قولك فى غير النسق القرآنى :

« وإن منكم لمن يبطىء » واطرح على نفسك نفس السؤال فى أى التعبيرين ترتسم صورة التبطئة أكثر ؟

لاشك أن الإجابة تنادى عليك فى وضوح ، وكشف ، وجلاء إذ نجدها فى النسق القرآنى الذى يجلى الموقف ، ويرسم صورة التبطئة لهؤلاء المتخاذلين المتقاعسين الذين إذا طلب منهم أن ينفروا فى سبيل الله كان منهم التباطؤ الشديد على النحو الذى مثلته الكلمة من خلال العبارة القرآنية « وإن منكم لمن ليبطئن » والتى جاءت عقب الإيقاظ والبعث والدفع بالنداء المشفوع بالأمر المتكرر لاستنهاض الهمم ، واستنفار القوى فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » .

واقرأ قول الله تعالى حكاية عن سيدنا نوح « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون »(١) إن الكثرة المرهقة من الضمائر فى كلمة « أنلزمكموها » قد جعلت من النطق بها أمرا فيه صعوبة ومشقة لكن لما كانت تمثل جو الإكراه والإلزام بما فيهما من عنت وكراهية كانت الفصاحة فى إدماج كل الضمائر الموجودة فيها فى النطق ، وشد بعضها إلى بعض تماما كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشد بعضهم إلى بعض .

وحول السبب فى تنافر حروف الكلمة دار الأخذ والعطاء بين علماء البلاغة . فذهب الرمانى أخذا عما ذكره ابن جنى إن مما يحقق التنافر البعيد الشديد أو القرب الشديد لمخارج الحروف فى الكلمة إذ البعد الشديد بمنزلة

(١) الآية ٢٨ من سورة هود .

Scanned with OKEN Scanner

الطفر ، والقرب الشديد بمنزلة مشى المقيد والطفر فى النطق فيه انتقال للسان من مخرج حرف إلى مخرج حرف بعيدا عنه مما يضطره إلى قطع مسافة كبيرة بين مخرجى الحرفين وفى ذلك إرهاق وصعوبة .

ومشى المقيد فى القرب بمنزلة رفع اللسان ، ورده إلى مكانه وفى هذا من الصعوبة القدر الذى لا يغيب ولا يختفى(١).

على أن ابن سنان رفض البعد فى مخارج حروف الكلمة كيف يؤدى إلى التنافر فيها . بل رأى أن هذا البعد مما يرتفع بالكلمة فى مراقى الحسن والفصاحة، وينزلها فى منازل البيان المنزلة العالية .

وأخذ لما يدرك بالسمع دليلا مما يدرك بالبصر ، وجعل منه تعليلا لذلك حين قال : « وعلة هذا واضحة وهى أن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ولا شك فى أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربه . ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ماينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود(٢) .

وعليه فقرب المخارج عند ابن سنان سبب من أسباب تنافر حروف الكلمة يؤدى إلى ثقلها على اللسان ، وعدم انسيابها وسيلانها عليه كما فى لفظ « الهعخع » إذ أن كثرة حروف الحلق على هذا النحو وتزاحمها قد أنشأ هذه الصعوبة وأوجد هذا الثقل .

لكن الاستقراء يبين أن ضابط القرب والبعد فى مخارج حروف الكلمة غير مطرد فى إيجاد الثقل ولا يصدق على كل الكلمات إذ أنك ترى الخفة بادية مسفرة فى بعض الكلمات مع أن مخارج الحروف فيها متقاربة وتراها أيضا على

(١) إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم ص ٩٦ .

(٢) سر الفصاحة ص ٦٤ .

أتم وضوح فى بعض الكلمات مع أن الحروف فيها متباعدة . واقرأ إن شئت كلمتى الجيش والشجى هل ترى فيهما ثقلا ، أو تحس عند النطق بهما صعوبة ؟

إنهما ينسابان على اللسان فى خفة ، ويجريان عليه فى لين ويسر ، وردد كلمتى لا بلع ، علم ، ولن تلمس فى النطق بهما أيضا ثقـــلا أو مشقة مع تباعد مخارج الحروف فى كل منهما .

ويؤكد هذا ويوثقه وجود ألفاظ فى القرآن الكريم تقاربت مخارج حروفها وألفاظ أخرى تباعدت فيها تلك المخارج ولو قبلنا بهذا الضابط مع إحساسنا بعدم إطراده لكان معنى ذلك وقوع غير الفصيح فى القرآن الكريم ، والقرآن فى أعلى درجات السلم البلاغى ووقوع غير الفصيح فيه أمر قطعى الاستحالة .

ولعل صوتا يرتفع ليقول : إن ورود كلمة غير فصيحة وسط الكم الهائل الكبير الذى احتشد فى القرآن العالى لا يقدح فى فصاحته(١) ولا يباعد بينه وبينها . كما أن ورود كلمة أعجمية فيه لا يخرجه عن عربيته ولقد ورد الأعجمى فى القرآن ومع ذلك لا يمكن لعاقل أن ينكر ما فيه من عربية وصلت إلى حد الإعجاز الذى بهر وأدهش .

وتفنيد هذا الاعتراض أوهى من أن تحتشد له فهو أضعف من أن تقدح الذهن لتبديد شبهته وقد أسقطه السعد(٢) بضربة واحدة من معوله لأن الأمر يتصل بمسألة هى من العقيدة فى القلب والصميم إذ أن مجرد التسليم بأن كلمة واحدة قد حواها القرآن ليست من الحسن الفصيح يجر إلى ما تنزه الله سبحانه وتعالى عنه من نسبة العجز إليه وعدم القدرة على تبديل غير الفصيح بالفصيح فى كتاب جاء يتحدى ببلاغته الإنس والجن فعجزوا عن أن يأتوا بأقصر سورة منه لبلوغه أعلى طبقات البلاغة .

على أن القول بأن اشتمال الكلام الفصيح على كلمة غير فصيحة لا يخرجه

---

(١) المطول ص ١٧ بتصرف .

(٢) انظر المطول ص ١٧ وما بعدها .

عن فصاحته . ومن ثم فإن القرآن لا يخرج عن الفصاحة لوجود كلمة غير فصيحة فيه قول لا يراعى ما اتفق عليه أهل الفن البيانى من أن فصاحة الكلام لا تتحقق إلا بفصاحة كل كلمة فيه والقياس فى وقوع غير الفصيح من الألفاظ فى القرآن على ورود كلمات غير عربية فى الكلام العربى ومع ذلك لا يخرج بها عن عربيته قياس لم يلاحظ فيه أنهم لم يشترطوا ذلك فى الكلام الفصيح وإذا بطل بكل ذلك عدم اتخاذ القرب أو البعد فى مخارج الحروف كضابط للثقل والتنافر - فإن الذى يقضى بالثقل، ويحكم بالصعوبة هو الذوق السليم فما عده الذوق صعبا ثقيلا فهو متنافر وماليس كذلك فلا سواء كان متقارب المخارج أو متباعدها والذوق الذى يحكم فلا ترد حكومته هو الذى يكون قد بلغ غاية التمام والكمال بعد أن تهيأ لصاحبه من شدة التفطن ومن مضاءة الذهن ، ومن توقد القريحة ، ومن صفاء النفس ، ومن طول الدربة ، ومعالجة مرامى الكلام ما يمكنه من النفوذ إلى أعماقه ومطاويه ، واستظهار مابه من دقائق وأسرار . إن مثل هذا هو الذى يقضى بالتنافر ويحكم .

ومما يذهب بفصاحة الكلمة ، ويقذف بها بعيدا عن مجالها كونها غريبة بعيدة غير مأنوسة ، ولا مفهومة لدى الخاص ، وعدم دلالتها على معناها دلالة سافرة بحيث تحتاج فى فهم المراد منها إلى تخريج على معنى بعيد .

إن استخدام "غريب بهذا المعنى أمارة العجز والبلادة ، ودليل نضرب الفكر والحس ، ورمز الإفلاس والإمحال ومن ثم كان الذوق العربى دقيقا وواعيا حين رفض التباصر بالغريب ، والتشادق به ؛ إذ أن الكلمة العربية على النحو الذى ذكرناه حين توجد فى التركيب ، وتنظيم مع كلماته تقف حجر عثرة فى طريق توصيل المعنى إلى الذهن ، وإنهاؤه إليه وبذلك تقطع تيار الفكر المتدفق والذى يمضى فى مجراه الطبيعى داخل العقل فتكون سدا يحجب الفهم . الأمر الذى يؤدي إلى تشويش السامع ، وإرباكه ، وعـــدم وضوح المعانى فى نفسه .

Scanned with OKEN Scanner

إن اللفظ لا يقع موقعه الحسن ولا يأخذ مكانه من القلب إلا إذا كان واضح الدلالة، بين السفارة، غير مغلق ولا مبهم ومن ثم نفهم لماذا قيل إن الاستعانة بالغريب عجز، خذ قول الأعرابي الذى سقط من فوق ناقته فاجتمع الناس حوله فصاح فى وجوههم قائلا: «لماذا تكأكأتم على كتكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا»، ومعنى هذا الكلام لماذا اجتمعتم على كما تجتمعون حول شخص مجنون انصرفوا»، وهذا المعنى ليس من السهولة فهمه من العبارة التى نطق بها العربى إلا بعد الرجوع إلى المعاجم التى تشرح معانى المفردات.

والبلاغيون يذكرون أن عدم وضوح الدلالة من اللفظ، وعدم ظهور معناه مما يسمى إغرابا وبعدا يرجع إلى سببين:

الأول: عدم ذيوع الكلمة، وتداولها، وانتشارها، واستعمالها وجريانها على ألسنة الأدباء والشعراء فيحوج فهمها إلى التفتيش عنها فى كتب اللغة وقد يعثر لها على معنى مثل كلمة (رخاخ).

بمعنى سعة ورغد وقد لا يعثر لها على معنى مثل (ترللج) بفتح فسكون ففتح فكسر ومثل «جحلنجع» بجيم مفتوحة فحاء ساكنة فلام مفتوحة فنون ساكنة فجيم مفتوحة، فعين ساكنة ويكاد لسانى أن يتعثر فى الطريق، ويكبو وهو ينطق بتلك الكلمة مما يجعلنى أفهم أن مافيها من هذه الصعوبة تنافر فى حروفها، وعدم ملاءمة ولا مجانسة بينها. بالإضافة إلى مافيها من هذه التعمية التى لا يظهر معها المعنى بسبب الركود، وعدم التداول والذيوع والاستعمال.

الثانى: عدم استعمال الكلمة وتداولها على ألسنة الخلص بالمعنى الذى أريد منها فتحتاج إلى تخريج على وجه بعيد كلفظ «مسرجا» فى قول الشاعر:

أيام أبدت واضحا مفلجا   أغر براقا وطرفا أدعجا
ومقلة وحاجبا مزججا   وفاحما ومرسنا مسرجا

والشاعر يتحدث عن جمال حسنائه الذى صرع قلبه ، وأجج مشاعره من خلال محاسنها الفاتنة فى أسنان متلألئة ، وتفليج باعد بينها فجملها ولم يظهرها متراكبة متراكمة ، وعينين واسعتين ، ومقلتين دقيقتين ، وحاجبين مزججين ، وشعر أسود فاحم ، وأنف وصفه بأنه (مسرج) .

ونحن نتوقف أمام هذا الوصف لنتساءل ماذا أراد به ؟

هل المراد تشبيه الأنف بالسيف فى الدقة والاستواء ؟ مثل تلك السيوف التى يصنعها « سريج » الحداد .

أم أن المراد أن يشبه أنف هذه الفتاة بالسراج فى الدقة واللمعان ؟وسواء عليه أراد هذا أم ذلك فلا يستقيم له ما أراد ، لأن صيغة « مفعل » بالتضعيف فى العين إنما تدل على الفصيح العربى على مجرد النسبة أى نسبة الشىء إلى أصله نحو تممته أى نسبته إلى تميم (فسرج) منسوب إلى السريجى أو إلى السراج[1] .

ولكنها لا تدل على التشبيه ومن ثم كانت الكلمة غريبة إذ لم تستعمل عند الخلص من الأعراب بالمعنى الذى أريد منها .

على أن هناك من حاول أن يرد هذا العيب فى الكلمة ويدفعه على أساس تصح معه ، وتسلم فاتجه بها وجهة أخرى فى الأخذ والاشتقاق وجعلها اسم مفعول مأخوذ من « سرج الله وجهه » أى حسنه وبهجه . وعليه فإن قول الشاعر « ومرسنا مسرجا » معناه ، وأنفا محسنا مبهجا من غير أن تكون هناك ملاحظة نسبة شىء إلى شىء ، أو تشبيه شىء بشىء ، وبهذا تخرج الكلمة من نطاق البعيد الغريب ، وتدخل فى حيز الحسن الفصيح .

لكن هذا التخريج وإن لم يباعد بين الكلمة « مسرج » وبين استعمالها فى معناها الذى أريد منها عند الخلص إلا أنها ما تزال غريبة بالمعنى الأول للغرابة .

(١) انظر الموضوع كله فى تجريد البنانى على مختصر السعد ج ١ ص ٥١، ٥٢، ٥٣ .

إذ أنها تحتاج إلى تفتيش، وبحث وتنقيب فى كتب اللغة للكشف عن هذا المعنى وإذا كان لا يبعد أن يكون « سرج » مأخوذا من « السراج » بمعنى « سرج الله وجهه » حسنه وبهجه أى: أوجده على هذه الصفة وبذلك لا يكون على معنى النسبة التشبيهية كما تقـــدم، ويكون ذلك من ابتكار المولدين. وهو لا يصح لاصطدامه بأصل مقرر وموثوق وهو امتناع أخذ السابق عن اللاحق.

وإذا كانت الغرابة تدور حول وحشية الكلمة، وإهمال استعمالها، وعدم وضوح معناها فإن وصف الغرابة « يلحقها، ولا يصل إليهـــا حين تكون مأنوسة كثيرة الدوران على ألسنة البيان. غير مغربة فى المعنى، مفهومة للسامع والقارىء على حد سواء وإذا كان ذلك كذلك فكيف نقيس قرب الكلمة، وأنسها، ويسرها؟

وكيف نقيس غربتها، وحوشيتها؟ ومن هم أولئك الذين يطبق عليهم هذا المقياس؟ من هم أولئك الذين يسمع لقولهم حين يحكمون على الكلمة بالغرابة أو بغيرها؟

هل هم خلص الأعراب من سكان البوادى من غير المولدين؟

ذلك ما صرح العلامة البنانى فى تجريده على مختصر السعد(١) وإذا كان الإحساس بغرابة اللفظ، أو عدم غرابته. هو أمر نسبى يختلف من إنسان لآخر تبعاً لثقافته، ولقراءاته، إذ أن ما قد يكون مغربا خفى المعنى، غير بين الدلالة عند فرد قد يكون مأنوسا مفهوما عند آخر فى بيئة تتفاوت فيها العقول وتتنوع الثقافات، ويوجد فيها أنصاف المتعلمين، والعلماء الفاقهون الدارسون. وعلى هذا فإن الذى تقبل حكومته، ويسمع قوله فيما نحن بصدد الحديث عنه هو من يرجع بثقافته إلى المنابع الأصيلة، والجذور البعيدة إلى خلص الأعراب الذين سكنوا البادية، وتابعوا مدلولات الألفاظ وهى تخطو خطواتها الأولى،

---

(١) تجريد البنانى ج ١ ص ٥١.

واستقرت فى أعماقهم المعانى الوصفية للكلمات ، وكثر تداولها فيما بينهم فإذا قل التداول للفظ فخفى معناه ، لأنه لم يذع ، ولم ينتشر ، ولم يستعمل عندهم بالمعنى المراد فإنه حينئذ يكون مستهجنا قبيحا ، وبعيدا غريبا .

إن طول الصحبة لما يروع من متخير الكلام ، وكثرة الممارسة لما يدهش من سحر وغزارة المتابعة المعجب من القول . مع معاناة الفهم والوزن والتحليل كل ذلك يصنع الذوق الخاص لدى من يملك رفاهة الحس ، وفيض العبقرية . وصاحب هذا هو الذى يقضى فى الكلمة بالغرابة ويحكم فيها بالبعد .

ومما يعيب الكلمة ، ويفقدها فصاحتها ، ويستلب منها جمالها وجلالها أن تكون مخالفة لما ثبت عن الواضع للغة وليس يهم وراء ذلك أن توافق القياس الصرفى أو أن تخالفه . فمدار المخالفة على ما ثبت عن الواضع من غير نظر الى القياس المذكور .

وانظر إلى كلمة « بوقات » فى قول الشاعر يمدح أميره :

فإن يك بعض الناس سيفا لدولة

فنى الناس بوقات لها وطبول

إن الشاعر يجعل من أميره سيفا للدولة نافذا قاطعا ماضيا ويجعل من غيره من ملوك هذا الزمان وأمرائه أبواقا وطبولا ومزامير « فبوقات » جمع « لبوق » وقد جمعها الشاعر جمع مؤنث سالم ولم يجمعها جمع تكسير مخالفا بذلك الوضع إذ الوارد جمعها جمع تكسير على « أبواق » أما جمعها جمع مؤنث سالم فلا يصح لعدم توافر شروط هذا الجمع فيها . وبذلك تكون قد جمعت بين مخالفتين ما ثبت عن الواضع ، ومخالفة القياس الصرفى ودع تلك الكلمة وانظر إلى كلمة «عور»(١). فالقياس الصرفى فيها قلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ولكنها هكذا جاءت عن الواضع لذا هى من الفصاحة فى اللباب والصميم .

(١) انظر بغية الإيضاح جـ ١ ص ١٦ ، ١٧ الطبعة السادسة عبد المتعال الصعيدى .

Scanned with OKEN Scanner

إن الكلمة التى تشرق بالفصاحة : هى ما ينطلق بها اللسان فى سهولة ويسر حيث تتوافق حروفها ، وتتعانق مقاطعها فى تلاؤم وانسجام ومن ثم تقطر رقة ، وتفيض سحرا . غير جافية ، ولا مغربة ، ولا بعيدة لم تخرج عما ثبت لها عند واضع اللغة . وإنما جرت على ماجرى عليه اللسان العربى فى أدائه واستعماله .

إن الكلمة المشرقة الناصعة على هذا النحو هى مع مثيلاتها اللبنات التى يبنى منها الكلام . فإذا توافقت فى بنائها ، وتلاءمت ، وسهل فهم التركيب معها فلم تربك السامع بتشويشها ، وخللها ، وسوء نظمها ، وعدم وضوح دلالتها. وا تخرج عما يوجبه الاستخدام الأمثل لنحو العربية ، فإن الكلام الذى يأتى عل هذا النحو هو الكلام الذى يحقق فصاحة اللسان ، وحلاوة التعبير بخلوص من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد اللفظى والمعنوى .

ويراد بخلو الكلام من ضعف التأليف أن تكون تراكيبه صحيحة سليـ آتية وفق المقاييس النحوية التى دونت بعد استقراء كامل لكلام العر الفصيح الذى نقل نقلا صحيحا عن طريق الرواة الذين حفظوا النصوص حفـ سليما ثم قاموا بتبليغها ، وتوصيلها إلى من طابها وسعى إليها ، وبذلك يكو النحو أداة لتقويم اللسان وضبطه ، ووزنه حتى لا يخرج فى بيانه ، وكلامه غير ما حفظته صدور الرواة ، وقامت بنقله ، وتبليغه وضبط حركته . إن الضبط هو الذى يرفض أن يتقدم المعطوف على المعطوف عليه ، أو أن يختـ إعراب التابع عن إعراب المتبوع ، أو أن يفصل بين المتضافين ، أو أن يـ الضمير على متأخر لفظا ورتبه .

إن النحو يتطلب فى بناء الجملة علاقات عضوية داخلية حتى يتضح المعـ ويشرق ؛ إذ أن الإعراب فرع المعنى وعدم الالتزام بتلك العلاقات وملاحـ يفقد الكلام ميزته فى الإبانة والظهور ، على أن فى الأداء للكلام العر حسب قوانين النحاة ومعاييرهم رنينا موقعا وأداء متفردا واللحن

آنذاك سيكون كالنغمة الناشزة فى اللحن المنسق الجميل ؛ لذا اشترط البلاغيون لتحقيق فصاحة الكلام سلامته من الخطأ فى التأليف ، والضعف فيه . ذلك أن الإتيان بالكلام على خلاف ما تقضى به قوانين اللغة يجعله فاقد لانسيابه الهادىء داخل الأذن عاريا من خلابته ، وروعته ، وتأثيره .

خذ قول الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

أرأيت إلى الشاعر كيف يدعو على أبى الغيلان أن يجزيه أولاده مع كبر سنه ، وحسن فعله معهم جزاء كالجزاء الذى وقع لسنمار بما له من قصة ذائعة مشهورة تضرب للخير يقدمه الإنسان فلا يلقى فى مقابله إلا الشر والجحود والعقوق والكفران .

وأنت ترى الشاعر قد جانبه التوفيق حين أضمر قبل ذكر المفسر والمرجع إذ لا يغيب عنك أن الضمير فى قوله : « بنوه » عائد على « أبا الغيلان » وهو لم يذكر قبل الضمير . لا لفظا وهذا بين واضح ، ولا معنى ، لعدم وجود ما يقتضى تقدمه ، ولا حكما ؛ لأنه محكوم عليه بالتأخر لمفعوليته .

إن الكلام العربى الفصيح هو الذى تأتى كل كلمة فيه قارة فى مكانها الصحيح ليس لها أن تتقدم عنه أو أن تتأخر فما موقعه أن يأتى مقدما يأتى مقدما . وما موقعه أن يأتى مؤخرا يأتى مؤخرا وما مجاله الإضمار لا يأتى مذكورا . وبمثل هذا يستوى كل شىء فى مكانه ، ويصح ، ويسلم ، ولا يلحقه عيب .

وغنى عن الإشارة والبيان أننا بذلك نتوخى سلامة العبارة وصحة الأسلوب لكن إذا حقق التقديم أو التأخير أو الإضمار أو غير ذلك مزية للكلام يفرضها الموقف ، ويتطلبها المقام ولم يخرج بذلك عما ارتضاه النحويون من معايير فإن ذلك من تمام حسن الكلام وبلاغته إذ يفصح عن مراد المتكلم ، ويكشف عما

يريد أن يبين عنه وأن ينقله إلى المتلقى وتلك هى البلاغة المنشودة التى يتغياها ويسعى نحوها صانع الكلام.

إن الاحتكام إلى قواعـــد النحو ضرورة أساسية، وشرط لا يمكن تخطيه، ولا تجاوزه للوصول إلى فصاحة الأسلوب، وسحر البيان.

أرأيت إلى الشاعر الذى يريد أن يزيد من وثاقة أن الجاه والسلطان لا يخلدان أحدا لأن ممدوحه الذى يتحدث عنه، ويشدو بفضائله قد حقق سنام المجد وذراه. ولو كان هناك من يخلد لهذا لـكان هو. ولـكن أحدا لم يخلق للخلود.

والمتلقى لهذا المعنى النبيل من الشاعر سوف يضرب رأسه بكفه حين يبصر كلماته التى تتغنى بالطيب من الفكر يجانبها الصواب، ويخذلها التوفيق فتضل الطريق الأقوم فى حسن التعبير، وروعة الأداء.

وفاقه اللغة حين يستمع إلى نظم الشاعر وقد تخلخل فيه الإيقاع الهادى، وفقد انسجامه المتوافق يقول: ليت الشاعر لم يقع فيما وقع فيه. ولـكن التمنى هنا لا يجدى ولا يفيد والآن إلى نظم الشاعر الذى لم يجد فيه التأليف فجاء على ماترى:

ولو أن مجداً أخلد الدهر واحدا

من النـاس أبقى مجده الدهر مطعما

ولن يعوزك أن تعرف أن الخلل قد أتى من طريق الإضمار قبل ذكر المرجع والمفسر حين عاد الضمير فى قوله: « مجده » على قوله: « مطعما»، وهو لم يذكر على معنى من المعانى وعلى نحو من الأنحاء.

ومن نافلة القول أن تـكرر أن فصاحة الأسلوب تقتضى أن توضع كل كلمة فى الشاعر الذى ينتظرها هى ولا شىء غيرها. بلا تقديم ولا تأخير.

ومما يفقد الأسلوب حلاوته، ويذهب به بعيدا عن مجال الفصاحة مايشيع بين الـكلمات من عدم التلاؤم، والتراحم، والتوافق، والتواصل، والتعاطف،

والتوادد ، فلا تصير الكلمة وكأن بها شوقا إلى ماقبلها ، أو حنينا طاغيا إلى مابعدها . بل تستشعر روح الغربة والعدواة ، وتبصر ريح الفرقة والقطيعة وترى الخصومة تسود بين الكلمات المتجاورات ، فلا تتجاذب ، ولا تتعانق ، ولا تتساند . وإنما تتنافر ، وتتباغض وتتعادي ، وتتباعد مما يجعل اللسان حين ينطلق بها كلها ينطلق بها وهـــو مرهق متعب . معنى مكدود من شدة ضغطها عليه ، ومن عظم تنافرها وفداحة ثقلها ، وعدم سيولتها وخفتها .

إن الكلمة قد تكون سيالة منسابة خفيفة رشيقة . عذبة سهلة ، ولكنها حين تنظم مع غيرها ، وترصف مع جاراتها ، وتلفق مع سواها ينشأ عن هذا النظم ثقل وصعوبة وإضطراب فى أدا. اللسان عند النطق والكلام مما جعل الجاحظ يصرخ بقوله : « ومن ألفاظ العرب تنافر وإن كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض إستكراه فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ولیس قرب قبر حرب قبر(١)

وحاول أن تقرأ هذا البيت بسرعة مرة واحدة فضلا على أن تقرأه مرة ومرات وسوف تجد من الصعوبة ما تكاد أن تتوقف بسببها عن متابعة القراءة وتردد مع ماأنشده خلف الأحمر فى هذا المعنى :

وبعض قريض القوم اولاد علة يكد لسان الناطق المتحفظ(٢)

وأنت تقرأ قول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شاشل شول

فتجد لاجتماع كلماته ثقلا على اللسان وصعوبة فى النطق وعدم اهتزاز له وطرب عند السمع فلا يسعك إلا أن تحكم عليه بالوخامة والخلو من الملاحة .

(١) البيان والتبين جـ ١ ص ٣٧ طبعة دار الكتب العلمية بيروت .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٧ .

Scanned with OKEN Scanner

والحانوت : بيت الخمار . وشاو : يشوى اللحم . ومشل وشلول : خفيف.
وشلشل : كثير الحركة : وشول : يحمل الأشيا .

وعند هذا البيت الذى عاب البلاغيون شأ شأته أو شلشلته وحكموا عليه بالتنافر والبعد عن الفصاحة قد توقف الأستاذ الدكتور محمد النويهى فى كتابه الجهير الشعر الجاهلى منهج دراسته عند حديثه عن البلاغة الصوتية التى تعتمد على الحرف المتردد ، والحكاية الصوتية(١) إذ رفض حكم البلاغيون عليه بالتنافر والثقل ورأى أن قيمته الفنية إنما تظهر أكثر ماتظهر حين يوضع فى موضعه بين مايسبقه وما يليـــه وهو بصورته التى جاء عليها إنما جاء قصدا للتظرف ، ورغبة الخلاعة والمجون ، إذ أنه يرسم صورة واضحة لشاعر مرح فرحان ومعه مجموعة من زملائه مسرعين إلى الحانة يتراقصون ، ويتمايلون ، ويعبثون وهم فى طريقهم إلى مجالس الشراب والطرب وغلامهم الغض الرشيق يتبعهم ، ويرقص كرقصهم إن الكلمات الخمس ، شاو مشل شلول شلشل شول، إنمـــا تصور ترنح السكارى حينما تستبد بهم الخمر . فالكلمات المتلعثمة التى اضطربت مخارج حروفها واختلطت لم تتجاوز الرؤية الحقيقية لمشهد رأته فصورته ومثلته فما يرى من ثقل فإنما هو ثقل نابع من وحى الموقف، ومن حكاية الحقيقة وماذا تنتظر من سكارى ثملين قد لعبت الخمر برءوسهم، وعبثت بعقولهم الأن يثقل السكر ألسنتهم ، ويضغط عليها ، ويحول بينها وبين التدفق ، والسيولة ، والانطلاق ؟

ويخيل إلى أن أستاذنا الكبير كان يستنصر بكلمات الجاحظ يقوى بها حجته، ويوثق بها دعواه إذ أن صاحب البيان والتبيين يقول : « ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها، ومخارج ألفاظها فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخـــرج كلام المولدين ، والبلديين . خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت

---

(١) الشعر الجاهلى جـ ١ ص ٦٧ وما بعدها د . محمد النويهى بتصرف .

Scanned with OKEN Scanner

بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخير لها لفظا حسنا أو أن يجعل لها من فيك مخرجا سريا فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له»(١) .

وليس يخفى أو يغيب أن الكلام إنما هو تصوير صادق وأمين لصورة صاحبه ، وأنه يعبر عنه ويحتويه ، ويحمل روحه ، وأحاسيسه ، ومشاعره وأن الصدق مع الموقف النفسى والشعورى هو مما يعول عليه ، ويعتد به ؛ ويوضع فى الحساب والميزان . ومن الظلم لصانع الكلام أن يطلب منه وهو فكه هازل عابث مايطلب منه وهو جاد صارم ملتزم . والشاعر الذى يستطيع أن يصور لنا مواقف التظرف والمجون تصويرا فكها دقيقا هو الشاعر المتمكن المتفوق الذى يذل له الشامس ، ويدنو منه النافر ويلين له العصى . ولا يحقق ذلك إلا من أوتى موهبة خارقة وعبقرية فياضة جبارة ، وعقلا فذا عملاقا .

لكن روعة الفكاهة إنما تقترن بصياغتها وتلتصق بها ، وتتصل بكل شىء فيها ومن ثم فإن محاولة الاعتداء على الصياغة المؤثرة القوية بالتضعيف ، وعدم التجويد والتحسين يفقد الفكاهة روحها ، ويعريها من تأثيرها ، ويباعد بينها وبين ماترسمه ، وتشخصه ، وتمثله ، فالموقف الفكاهى إنما يعمد إلى تجميل الحياة فى عيوننا . وذلك بتخفيف الأعباء التى تقصم فى عنف وقسوة ظهورنا ، وطرح الأحمال الثقيلة التى تهد قوانا وتقوض كواهلنا ، ومحاولة الترفيه عنا بتخليصنا من الهموم التى تضغط علينا ، والتى تحاصرنا ، وتكاد تخنقنا ، وتقتلنا . والسبيل إلى كل ذلك إنما يكون بالتعبير الراقى الممتاز والمركز .

إن الصياغة هى التى تبرز الفكاهة ، وتجليها ، وتحدد ملامحها ، وأنها تبلغ قمة التأثير حين يحسن الصائغ صياغتها وعرضها ، وأنها تنطفىء وتذبل ، وتفقد حيويتها ، ونضارتها لو عرضت فى معرض رث لا يبرز مفاتنها ، ولا يكشف عن أسرار الجمال فيها . وأن الصياغة التى تبرز الفكاهة والتى نتكلم عنها :

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٨١ .

Scanned with OKEN Scanner

إنما هى الصياغة الشعرية التى تستنجد بكثير من التروى ، والفكر ، والتأمل ، والتجربة . مع رفاهة الحس اللغوى ، وجمال الذوق الفنى ، ورحابة الموهبة المطبوعة ، والقدرة على التقاط الشوارد من الأفكار ، والتمكن من انتقاء الألفاظ ، واختيارها ، ورصفها ، وحسن نسجها ، بوضع كل لفظ فى موضعه الملائم مع الاستعانة بقيم العربية الصوتية ، والخيال السابح المحلق الذى يرى الأشياء بعينه السحرية النافذة فيلونها بغير ألوانها ، وينفخ فيها من روحه روحا ومن حياته حياة .

إن بيت الأعشى فى تقديرى لم يصب بالنضوب والجفاف ، والذبول والإنطفاء لما به من ثقل يمثل ثقـــل الكلمات على ألسن الندامى والسكارى الهازلين . وإنما لهذا ولما به من شأشأه أو شاشلة أفقدته عذوبة الجرس ، وجمال النبر ، وحسن الإيقاع ، وروعة الصوت ، وحلاوة النغم مما يجعل الأذن وهى تصغى له وتستمتع ، لا يهتز معها الجسد ولا ينتشى ولا يطرب .

ومن داعى الحسن ، وأسباب الفصاحة للكلام أن يورد المتكلم كلامه بعيدا عن التعقيد وذلك بأن يختار كلماته اختيارا حسنا ، وأن ينظمها فى التراكيب نظما جميلا وهو حين يفعل ذلك يلاحظ فى كل ذلك أن تدل الألفاظ على المعنى الذى يريده فى سهولة ، ويسر ، وأن تؤلف تألفيا جيدا لا غموض فيه ، ولا التواء ، ولا تعقيد بحيث لا يبذل العقل فى فهم المراد منه فهما جيدا أكثر مما يجب أن يبذل فى المشرق الفصيح .

والتعقيد على هذا هو ما يوصل إلى كد الذهن ، وإرهاقه وإجهاده بسبب محاولته تفسير الفكرة ، وفهم معناها من خلال العبارة التى تؤديها ، والتى لا يتم [illegible] القيام بها فى سرعة نتيجة لما بها من خلل سواء نشأ من إضطراب الكلمات ، وسوء تنظيمها ، وعدم وضعها الوضع الأمثل ، وتشويشها أو نشأ من القصور فى أداء المعنى بسبب صعوبة الانتقال من المعنى الظاهر للكلمة إلى المعنى المراد والمقصود .

وعلى هذا فالتعقيد نوعان :

١ - تعقيد لفظى .

٢ - تعقيد معنوى .

التعقيد اللفظى وينشأ من عدم وضع الكلمات الوضع الأقوم والأمثل الذى يفرضهما علم النحو وذلك إنما يكون بتقديم مالا يستساغ أن يتقدم وكذلك بتأخير مالا يستساغ أن يتأخر وبالفصل بين الكلمات التى يجب أن تتلاصق ، وتتجاور ، مما يؤدى إلى خفاء الدلالة على المعنى . وهو يتدرج بين الشديد والخفيف .

فالشديد كقول الشاعر :

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفرا خط رسومها

فالشاعر يتحدث عن دار صارت بالية مجدبة بعد أن تركها الأهل وغادرها الأحباب وقد كانت إلى الأمس آهلة عامرة تحتشد فى أفنائها مظاهر البهجة ، ويثوى بين جدرانها النعيم ، إن الدار قد صارت من شدة جدبها قفرا حتى لكأن قلما خط رسومها وأصل الكلام : فأصبحت قفرا بعد بهجتها كأن قلما خط رسومها وأنت حين تدير البيت فى ذهنك ثم ترجع إلى أصله كما هو ماثل أمامك تجد الصورة تختلف وترى فى البيت من الفصل والتقديم والتأخير ماعقد المعنى وصعبه وجعله يصل إلى درجة كبيرة من الشدة .

والخفيف كقول الشاعر :

جفخت وهم لا يجفخون بهابهم شيم على الحسب الأغر دلائل

وكرر هذا البيت وسوف تجد ثقلا على اللسان ، وصعوبة فى النطق من اجتماع الكلمات على هذا النحو . وانظر إلى الشاعر : وكيف أراد أن يجعل من الفضائل التى تنبعث عنهم من يباهى بهم ، ويزدهى ويزدان فتتشرف هى بهم ولا يتشرفون هم بها فأضاع هذه المباهاة بهذه الأحمال الثقيلة التى ضغط بها على

الألسنة وهى تدير كلماته فى الأفواه فأبطأ من انطلاقتها ، وكيف ساعد الفصل بين الفعل وفاعله « جفخت شيم » بجملة الاعتراض « وهم لا يجفخون بها » ، وبين الجار والمجرور فى قوله « بهم » ومتعلقه وهو الفعل « جفخ » ، على مزيد من المشقة والإرهاق أضنى التركيب فأصابه بالانطفاء والذبول .

والنوع الثانى من التعقيد وهو التعقيد المعنوى وفيه يصعب فهم المعنى وتأتى الصعوبة من خطأ الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى :

والمعنى الأول : هو المفهوم من اللفظ لغة .

والمعنى الثانى : هو المعنى المقصود والمراد كقول عباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

والشاعر يريد أن يقول إنه يتحمل لواعج الشوق ، ويوطن النفس على مكابدة الأسى والحزن عله يحظى بوصل دائم وسرور لا ينقطع .

فأنت تراه هنا قد جعل سكب عينيه الدموع كناية عن أسى قلبه ولوعة فؤاده لفراق الأحبة ، وهو إلى هذا الحد مصيب لا إعتراض عليه ، ولكنه ينتقل من هذه الإصابة إلى شىء آخر إذ تراه يستعمل « جمود العين » كناية عن الفرح والسرور حتى يحظى بوصل دائم من الأحبة وهذا أمر بعيد وغير مقبول ، لأن « جمود العين » إنما يعبر به عادة عن بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء فى مواطن المرارة والحزن ومن ثم خفى المراد لما فى تخريج الكلام على هذا النحو من تعسف وهذا هو التعقيد المعنوى .

بقيت كلمة جاء أوانها بعد هذا التطواف السريع مع مصطلح « التعقيد » يجب ألا يغيب عنا أن الدعوة إلى الوضوح فى الأساليب بحيث لا يشق فهمه ولا يغمض معناه ليست دعوة إلى التسطيح فى الأفكار ، ولا إلى الشقشقة اللفظية الفارغة والتى تكون أقرب إلى الهامشية والعامية التى لا تثير فكرا ، ولا تحمل مضمونا منها إلى أى شىء آخر .

إن كون الكلام أن يسابق معناه إلى قلبك لفظه إلى سمعك ليس معناه

هذا الابتذال الرخيص للغة الأدب وهذا الهوان الذى يعرض به الفن القولى من نثر وشعر فى ضعة وتخاذل ، وضئولة بحيث لا يبذل فى الوصول إلى معرفة دقائقه وخوافيه جهد عقلى ، ولا تقدم بين يديه طاقة فكرية يستثيرها بناؤه اللغوى ، ويتحتم تقديمها تقديمها ، وبذلها لمعرفة أسرار تراكيبه ، وخصائص تلك التراكيب ، وتحقيق اللذة من خلال بلوغها والإنتهاء إليها .

إن معنى الوضوح تحدث عنه البلاغيون والنقاد ألا يأتى الكلام مكوماً مربطا مشوشا مختلا فى بنائه وفى دلالة ألفاظه بحيث يحوج فى فهمه إلى إعادة بنائه بناء صحيحا ، وإلى وضع ألفاظه فى مكانها الملائم ، وإلى تسوية تركيبه ، وإلى ربط الدلالة الحقيقية لمعـــانى الألفاظ بالمراد منها ربطا فيه إستواء وفيه استقامة . ثم الانتقال بعد ذلك إلى الوصول لفهم المعنى الذى قصد إليه الفنان وان يكون إلا معنى ضحلا فيه ضئولة وشحوب وهزال .

إن معنى كون الأسلوب قريبا فى فهمه ، غير غامض فى معناه أن يكون المعنى الذى تبذل فى الوصول إليه الطاقة الفكرية ، والذى رشح بسببه الجبين ، وكد معه الخاطر معنى عميقا قويا جاءت به لغة عميقة قوية .

إن هذا الأدب هو الأدب الذى يجب أن تعبأ من أجله الطاقات وأن تبذل فى سبيل تحقيقه كل القوى والإمكانات . ومن ثم كان مدح البلاغيين للأبيات وللأساليب التى تحمل المعانى الغريبة النادرة ، والأمثال الشاردة السائرة ، والأفكار البديعة التى تأتى على غير مثال والتى تحوج فى فهمها الى التأمل ، والتروى والدعة ، والصبر ، والأناة . والأديب ذو الرؤية الواسعة والشاعر الملهم الفنان إنما يقيم بناؤه اللغوى على أساس صحيح وقوى يأتى ثمرة لموهبته ، ولنظرته العميقة النافذة ، ولقدرته المتفردة المتميزة التى تحسن انتقاء الألفاظ لما يشا كلها من المعانى ولنفوقه ، وسعة محصوله ، سوف تنثال عليه انثيالا وسوف يختار منها ما يعبر عن المشاعر التى تزدحم فى صدره وتجول فى فؤاده ، وتتردد فى خاطره وهو فى انتقائه واختباره لا يعمد الى وضع مقارنة بين

لفظ وغيره، ليختار اللفظ الأمثل وإنما ستتوارد على ذهنه تلقائيا، وستتداعى إليه فى تكاثر وتزاحم وهو بحاسته الفنية سيختار أداته اللغوية، التى يرقى بها أسلوبه، ويجود به تعبيره .

والخلاصة أن الجهد المبذول فى فهم الكلام المعقد المشوش جهد خارق يوصل إلى معنى ضحل هزيل وهذا ما نرفضه، ولا نقبل به ولا نرتضيه . ولكنا نقبل بالجهد المتأمل المتروى الذى يسعى للوصول إلى المعنى النادر الغريب الذى حققه عمق البناء اللغوى لأنه جهد يساوى المعنى الذى انتهى إليه ومن هنا كان البلوغ إلى المعنى البعيد والبديع المخترع الذى يأتى على غير مثال حقيق بأن يضحى من أجله بأقصى جهد، وكل وقت .

وبعـــد :

إن الكلام الفصيح على النحو السابق لا يمكن أن يأتى به وأن يحققه إلا متكلم فصيح يعرف كيف يختار كلماته وكيف يسبكها سبكا جيدا، وينظمها نظما حسنا ليتلقاها عنه المتلقى فتحقق لديه اللذة والمتعة، وتحركه إلى الغايات السامية والأهداف النبيلة .

إن المتكلم الفصيح صاحب ملكة قائمة بنفسه يستطيع بسببها ومن خلالها أن يعبر تعبيرا صادقا عن كل ما يستكن فى أعماقه، ويثور بداخله من خواطر، وأفكار، وأغراض . فالفرح والحزن، والرضا والغضب، والمدح والذم، والوصف والفخر، والهجاء والمدح، والسياسة والنصح كلها وغيرها أغراض للكلام إن أراد أن يعبر عنها عبر بأسلوب فصيح رشيق الكلمات، واضح المعنى والدلالة جيد التأليف، حسن السبك . وحتى يكون فصيحا لابد أن تتحقق لديه المقدرة حتى يعبر عن جميع الأغراض فى كل وقت عندما يشاء فإن واتاه التعبير عفوا دون أن يصدر عن أساس نفسى ثابت فإن ذلك يمنع من أن يدخل فى نطاق الأبيناء الفصحاء .

إن فصاحة المتكلم إنما ترجع فى حقيقة الأمر إلى جذور الموهبة المقتدرة والتى تغذت من منابع الثقافة الأصيلة بعد أن طالت صحبتها ومعايشتها الفصيح

القول، وروائع البيان فاكتسبت قدرة خارقة وصار لديها حس مرهف بسبب إستغراقها الاستغراق الكامل فى ظلال الآداب الحية الناضجة بشعرها، ونثرها، وأصبحت من كثرة الدربة وطول الصحبة، وغزارة المران بحيث لا يستعصى عليها قول ولا يتأبى عليها غرض إذ تواتيها قدرتها بما تريده، ويسعفها بيانها بما تحاول أن تخوض فيه من كلام عذب رشيق وحلو فصيح.

وعلى هذا فالفصاحة ملكة نفسية تغذيها روافد الأدب وتجعلها من طول الدربة، والممارسة قادرة على أن تقول كلاماً فصيحا فى كل الأغراض، وكل الأوقات. وليس شرطا أن تنطق بالفعل، إذ أنها قدرة وإستطاعه حتى وإن لم تتكلم بكلمة أو تنطق بحرف والله أعلم.

مراجع البحث

١ - أسس النقد الأدبى عند العرب للأستاذ الدكتور / أحمد أحمد بدوى
٢ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للأستاذ / عبد المتعال الصعيدى .
٣ - البيان والتبيين للجاحظ . دار الكتب العلمية بيروت لبنان .
٤ - البيان القرآنى للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى .
٥ - البلاغة تطور وتاريخ للأستاذ الدكتور / شوقى ضيف .
٦ - البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى للأستاذ الدكتور / محمد حسنين أبو موسى .
٧ - البلاغة العربية فى ثوبها الجديد الجزء الأول للأستاذ الدكتور / بكرى شيخ أمين .
٨ - تجريد البنانى على مختصر السعد - الطبعة الأولى المطبعة الخيرية سنة ١٣٣٠ هـ .
٩ - التصوير الفنى فى القرآن الكريم للمرحوم الشهيد / سيد قطب ، دار الشروق .
١٠ - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم تحقيق د/ محمد خلف الله وزميله .
١١ - خصائص التراكيب للأستاذ الدكتور محمد حسنين أبو موسى .
١٢ - الخيال الشعرى عند البحترى للأستاذ الدكتور / طه مصطفى أبو كريشه
١٣ - دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى طبعة المنار ١٩٦١ .
١٤ - ديوان امرىء القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف .
١٥ - ديوان البحترى تحقيق حسن كامل الصيرفى دار المعارف .

١٦ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي دار الكتب العلمية - بيروت .
١٧ - الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه للأستاذ الدكتور/ محمد النويهي.
١٨ - الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق علي محمد البجاوي وزميله طبعة عيسى البابي الحلبي .
١٩ - عبد القاهر الجرجاني للأستاذ الدكتور /أحمد أحمد بدوي .
٢٠ - المطول لسعد الدين التفتازاني ١٣٣٠ هـ .
٢١ - المنهاج الواضح للأستاذ حامد عوني .
٢٢ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي ج ١ عالم الكتب ببيروت .

Scanned with OKEN Scanner